@ketab_n
22.4.2015

أري دي لوكا

جبل الربّ

ترجمة

نزار آغري

منشورات الجمل

رواية

أري دي لوكا

جبل الرّب

ويليه:

«جبل الرّب» أو بُكم التاريخ

بقلم: إسكندر حبش

ترجمة

نزار آغري

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

أري دي لوكا: جبل الرّب

Twitter: @ketab_n

أري دي لوكا: جبل الرّب، ترجمة: نزار آغري
الطبعة الأولى ٢٠١٥
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٥
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Erri De Luca: Montedidio
©Erri De Luca, 2001

© *Al-Kamel Verlag 2015*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

١

النهار لقمة. إنه صوت المعلم أريكو على باب المحل. كنت أقف هناك منذ ربع ساعة كي أبدأ العمل. هو وصل في السابعة، سحب الباب وقال عبارته المشجعة: النهار لقمة، إنه قصير، فلنشرع في العمل. بأمرك، أجبته، وبدأنا العمل.

اليوم أدون أولى ملاحظاتي في دفتر يومياتي. توقفت عن الذهاب إلى المدرسة. لقد بلغت الثالثة عشرة من عمري وأرسلني والدي إلى العمل. التعليم الإجباري ينتهي عند الثالث الإبتدائي غير أن والدي جعلني أتعلم حتى الصف الخامس لأنني كنت أمرض ولأنه أرادني أن أتعلم أكثر. أولاد الجيران يذهبون إلى العمل وهم لم يتلقوا أي تعليم. لم يرغب والدي في ذلك. إنه عامل تفريغ البضائع في الميناء وهو نفسه لم يتلق أي تعليم. الآن فقط يحضر دروساً ليلية لتعلم القراءة والكتابة في نقابة عمال الشحن. هو يتكلم اللهجة النابولية ويبدي إحتراماً كبيراً للغة الإيطالية وللناس

Twitter: @ketab_n

المتعلمين. يقول أن المرء يستطيع باللغة الإيطالية أن يحمي نفسه بشكل أفضل. أنا أعرف اللغة الإيطالية لأنني أقرأ الكتب في المكتبة العامة ولكنني لاأتكلم بها. أكتب الآن بالإيطالية لأنها صامتة وأستطيع أن أدون بها المشاغل الكثيرة التي يضج بها نهار نابولي.

٢

أخيراً ها أنذا أعمل، بأجر زهيد، نعم، ولكني في آخر الأسبوع أحمل معاشاً إلى البيت. إنها بداية الصيف. الساعة السابعة صباحاً، الجو منعش. نتناول الفطور معاً، نحن الإثنين، ثم أرتدي سترة العمل وأخرج معه، أرافقه برهة ثم أعود أدراجي فمحل المعلم أريكو يقع في الزقاق الذي يمر بمحاذاة بيتنا. أهداني والدي في عيد ميلادي قطعة خشبية منحنية تسمى بومرانغ. أحملها بيدي دون أن أساله عنها. تسري رعشة في جسدي، رجفة خفيفة تهزني. يشرح والدي بالقول أنه ينبغي رميها بعيداً فتنطلق ثم تقفل راجعة إلى الوراء. يسيطر الحنق على أمي: ولكن أين يمكنه إستعمالها؟ إنها على حق. في هذه الحارة المكتظة بالعجائز لن تجد بقعة خالية إذا أردت أن تبصق على الأرض. هنا ليس ثمة مكان تنشر فيه غسيلاً. حسناً، أقول، قد لا أستطيع أن أرميها ولكن بوسعي جرها. إنها ثقيلة كالحديد. أمي أهدتني بنطلوناً إشترته

Twitter: @ketab_n

من سوق ريسينا، وهو مصنوع من قماش أميركي جيد. إنه خشن وداكن اللون. أرتديه وأسويه عند ركبتي.

نعم. أحمل النقود يوم الأحد. هكذا يغدو المرء رجلاً. هذا ما كان ينقصني. يصل صوتي إلى مسمعها. لقد تكلمت بطريقة خشنة.

٣

حصل والدي على البومرانغ من أحد أصدقائه البحارة. إنه ليس لعبة أو أداة للتسلية بل هو آلة كان أفراد شعب قديم يستعملونها للعمل. بينما يروح أبي يشرح لي، أشرع أنا في التودد إلى الآلة العتيدة. أمرر يدي عليها، أمسدها برفق. لقد تعرفت من المعلم أريكو إلى الخطوط الخشنة. ثمة وتر ووتر مضاد. أحمل البومرانغ في حضني وأشعر به يهتز بين يدي. هو ليس لعبة، بل أداة عمل، إنه سلاح. أريد أن أتعلم إستعماله. يجب أن أتدرب على إستعماله. في اللغة الإيطالية هناك فعلان للإشارة إلى النوم والحلم. في النابولية ثمة كلمة واحدة تحمل المعنيين معاً. إنهما بالنسبة لنا شيء واحد.

٤

كنست مخزن الخشب وقد تعرضت لهجوم العث الذي أخذ يتسلق ساقي. أثناء العمل أرتدي بنطالاً قصيراً. اكتسى البنطال اللون الأسود. عمد المعلم أريكو إلى غسلي بخرطوم

Twitter: @ketab_n

الماء أمام المحل. وقد غرقنا في الضحك. لحسن الحظ أن الوقت صيف. رششنا المحل بمبيد الحشرات. كانت هناك فئران وأخذ المعلم يصرخ بالنابولية: فئران، فئران. لقد خاف من الفئران أما أنا فلم أخف. ناولني المرتب نقداً. عد النقود وسلمني إياها. مساءً أبدأ في التمرن على إستعمال البومرانغ. ولقد عرفت أنه ليس من أميركا بل من أستراليا. الأميركيون طافحون بالأشياء الجديدة على الدوام. يتحلق أهالي نابولي حولهم حين ينزلون من البواخر لكي يتعرفوا إلى الأشياء الجديدة التي يحملونها معهم. لقد جلبوا حلقة دائرية مصنوعة من البلاستيك تسمى هيلاهوب. رأيت ماريا تديرها حول خصرها محاولة ألا تجعلها تقع على الأرض. قالت لي: جرب، فقلت لا. بدا لي أنها ليست للذكور. ماريا بلغت الثالثة عشرة من العمر قبلي وهي تسكن في الطابق الأول وهذه هي المرة الأولى التي تكلمني فيها.

٥

حملت البومرانغ. شعرت برجفة. شرعت في الإستعداد لإطلاقه. وضعته على كتفي ودفعته إلى الأمام لكي أترك له المجال كي يمضي إلى الأمام ولكنني لم أطلقه. الكتف ملتو مثل ردفي ماريا. لم أستطع فحص البومرانغ على مقربة من قمة جبل الرّب. أمسك بالخشبة من آخر سنتيمتر وأحملها إلى الخلف ثم أمدها إلى الأمام. أكرر ذلك مرات عدة. يتصبب

Twitter: @ketab_n

العرق مني. أقبض على الممسك بقوة. لحظات وستتراخى أصابعي وتفلتها. شعرت أن يدي اليمنى أصبحت أثقل من اليسرى. أستبدلهما. بهذا الشكل يتصل قسم من جسمي بالقسم الآخر. يبدو جسمي سريعاً، قوياً ولكن متعباً. في المحاولات الأخيرة كانت الخشبة على وشك الإنطلاق غير أنني وجدت صعوبة في التنفس فتوقفت.

٦

لم أكن أرغب في البقاء في المدرسة، فقد كبرت وتجاوزت مرحلة الخامس الإبتدائي. في فترة الظهيرة كان بعض التلاميذ يخرجون قطع الحلوى من حقائبهم، أما نحن الفقراء فقد كان بواب المدرسة يعطينا نتفاً من الخبز والسفرجل. في أيام الحر كان التلاميذ الفقراء يأتون إلى المدرسة بعد أن حلقوا رؤوسهم بالكامل. تصير رؤوسهم مثل البطيخ. وكان هذا من أثر انتشار القمل أما الآخرون فكانون يبقون على شعرهم طويلاً ممشطاً. كانت ثمة فروقات كثيرة بيننا وبينهم. في الأخير هم يستمرون في الدراسة أما نحن فلا. كنت أرسب كثيراً وأبقى أكرر صفوفي لأنني كنت أمرض أما هم فكانوا ينجحون دوماً ويتجاوزونني. لهذا لم أرد البقاء في المدرسة بل رغبت في أن أعمل وأساعد أهلي. يكفيني ما تعلمته. أعرف الإيطالية، اللغة الهادئة التي ترقد بين صفحات الكتب.

Twitter: @ketab_n

٧

عندما أعمل وأتمرن على البومرانغ تنشط شهيتي للأكل. يسعد والدي حين يتناول الفطور معي. في السابعة يغمر ضوء الصباح الشارع وينتشر في كل مكان. ولهذا فإننا لا نشعل الضوء في الطوابق السفلى. في الصيف يأتي الضوء طازجاً، يزحف على الأرض ببطء قبل أن يصعد ويكون فرناً فوق المدينة. أضع الخبز في فنجان الحليب الذي غطاه السواد من أثر القهوة. كان أبي يستيقظ وحيداً في كل الصباحات والآن يسره أن أستيقظ معه فيتبادل معي بعض الكلمات ثم نخرج سويةً. تنهض أمي متأخرة. إنها ضعيفة ومنهكة في أغلب الأوقات. وقت الغداء أصعد إلى غرفة الغسيل لأنشر الملابس وأعود بها مساء. لم يسبق لي أن خرجت إلى هناك، إلى المصطبة. إنها مرتفعة جداً في جبل الرّب حيث ينتشر الهواء مساء. لاأحد يراني هناك حين أتمرن بالبومرانغ الذي يهتز في الهواء الطلق. تدور المسكة حول نفسها عندما أرميها بعد أن أكون تشبثت بها كي لا تفلت مني. إنها مصنوعة من خشب خاص سهل القذف. المعلم أريكو نجار ماهر وهو يقول أن الخشب من النوع الجيد الذي يقاوم الحريق والماء والنبيذ. أنا أعرف أنه جيد للقذف ولكني لا أقول ذلك منتظراً أن يقوله هو بنفسه. فكرت في إطلاق البومرانغ من غرفة الغسيل على أعلى مصطبة من جبل الرّب.

Twitter: @ketab_n

٨

تكل ذراعاي وأتعرق قليلاً فأتمدد على البلاط حيث تتوزع مناشر الغسيل. من فوق ليس ثمة أي أثر للمدينة. أغلق عيني قليلاً وأنظر من الأعلى بعينين نصف مغمضتين. في الحال تصبح السماء أكثر قرباً وظلمة. عيني اليمنى ضعيفة، غير أني أرى السماء بها أفضل مما أفعل بالعين اليسرى. بالعين اليمنى أراقب الشارع وأحدق في الوجوه وأمارس دور المعلم في المحل. العين اليسرى قوية، سريعة، تلتقط على الماشي. إنها عين نابولية. العين اليمنى بطيئة لا تقبض على شيء. حين تكون ثمة غيوم فإنها ترى ما يشبه نقاطاً ضخمة كتلك التي يرسمها الفراش على اللحاف بإبرته التي يمررها من طرف لآخر بمهارة.

٩

أعود من غرفة الغسيل، احمل الألبسة في السلة. في عتمة الدرج هناك من يتجسس على الممر. رغم العتمة أعرف إن كانت ثمة عيون تراقب لأن العيون التي تنظر تصدر تياراً يسري في الهواء ويجري من تحت الباب. يخطر لي أنها ماريا. البيت قديم والأرواح تصعد على أدراج المساء. من دون الجسد تحن الأرواح إلى الأيدي وتختبىء خلف الأشخاص من أجل أن تلمسها. أشعر بالإنهاك بعد كل هذا الجري. الآن حيث الصيف تلمس الأرواح وجهي وتجفف

Twitter: @ketab_n

العرق. في القصور القديمة تتقابل الأرواح. ولكن حين يقول شخص ما إنه رآها فإنه يكون قد كذب. الأرواح تستطيع أن تلتقي حين تريد هي.

١٠

المعلم أريكو يستضيف في المحل إسكافياً يدعى دون رافانييلو. أنا أنظف مكانه أيضاً. حول السندان وكذلك كومة الأحذية التي يقوم بتصليحها. جاء إلى نابولي بعد الحرب من مكان ما من أوروبا. قدم مباشرة إلى جبل الرّب وذهب إلى المعلم أريكو وشرع من فوره في تصليح أحذية الفقراء. تصير الأحذية وكأنها جديدة. ينادونه بإسم رافانييلو لأن شعره أحمر وعينيه خضراوين وهو صغير الحجم وله حدبة في أعلى ظهره. لم يكد أهل نابولي يلمحونه حتى خلعوا عليه لقب رافانييلو. ومن ثم أصبح دون رافانيي. هو نفسه لا يعرف متى جاء إلى هذه الدنيا.

١١

الأطفال لايميزون الأعمار. بالنسبة لهم ليس هناك فرق بين أربعين أو ثمانين سنة. سمعت مرة وأنا على الدرج ماريا تسأل جدتها إن كانت عجوزاً. أجابت الجدة بالنفي. سألت ماريا إن كان جدها عجوزاً فأجابت الجدة بالنفي أيضاً. قالت ماريا إذن لايوجد عجائز فتلقت صفعة. أنا أستطيع أن أخمن أعمار الناس غير أنني لا أستطيع تعيين عمر رافانييلو. في

Twitter: @ketab_n

الوجه يبلغ مائة عام. في اليدين أربعين عاماً. في الشعر عشرين عاماً فشعره كله أحمر. أما في طريقته في الكلام فلا أعرف. عندما أمر بالقرب منه يبتسم لي وتتحرك التجاعيد في وجهه ويصير مثل صفحة ماء البحر حين يهطل المطر.

١٢

إنه شخص طيب للغاية، رافانييلو، يصلح الأحذية ولا يسأل عن الأجر. يأتي أحدهم ويطلب زوجاً من الأحذية الجديدة. يأخذ القياس بقطعة من الخيط يعقده ويربطه ثم يشرع في العمل. يعود الرجل ليقيس الحذاء ويراه مناسباً تماماً، أكثر من القفازات. رافانييلو يعمل من أجل راحة الأقدام. هو لايؤذي حتى ذبابة ولاتعمد الذباب إلى إيذائه أيضاً. تطير من حوله ولكنها لاتحط عليه رغم أنها كثيرة العدد بينما يعمد المعلم أريكو إلى تحريك رقبته يمنة ويسرة مثل حصان عربة كي يطردها عن وجهه إذ تكون يداه مشغولتين. وهو يشخر أيضاً مثل حصان. ألوح بالخرقة في الهواء من حوله فتدعه الذباب بسلام لبعض الوقت.

١٣

أرتدي المشايات حتى في الشتاء، فالقدمان يطولان ويمكن لهما أن يمتدا إلى الأمام قليلاً قبل أن أضطر إلى شراء زوج جديد من الأحذية. حذائي بات صغيراً. طلب

Twitter: @ketab_n

رافانييلو مني أن أخلعه ففعلت ورحت أكنس الأرض عاري القدمين. وقد عدله رافانييلو في غيابي. حين لبسته من جديد وقت الغداء رأيته يناسب قدمي حتى إعتقدت أنني ربما أخطأت فإرتديت حذاء غيري. نظرت إليه فأومأ برأسه. قلت له: شكراً يادون رافانييلو. قال: لاتقل دون. ولكنك مسيحي طيب تعتني بأقدام الفقراء وتستحق أن تكون دوناً. لا. لا. الدون يناسب الآخرين أكثر مني. وفضلاً عن هذا فأنا لست مسيحياً. أهلي كانوا يطلقون علي إسماً قريباً من رافانييلو.

سكت. لم أكن قد تبادلت الكثير من الكلمات معه من قبل. كانت رائحة الحذاء زكية. لقد دبت فيها الحياة على يديه. في البيت فرحت أمي إذ شعرت أنني أجعل الناس يحبونني. ولكن رافانييلو ليس مقياساً على ذلك فهو يحب كل الناس.

١٤

أسمع أصوات وصرخات باللغة النابولية. أنا أتكلم النابولية ولكنني أكتب بالإيطالية. نحن نعيش في إيطاليا ولكننا لسنا طلياناً. يقول والدي. لكي نتكلم اللغة يجب أن نتعلمها في المدرسة. نحن نبدو كما لو أننا نعيش في المهجر، في أميركا مثلاً، من دون أن نسافر. الكثير منا لن يتعلموا الإيطالية أبداً وسيموتون نابوليين. إنها لغة صعبة، ولكنك ستتعلمها وستصبح إيطالياً. أما أنا وأمك فلم نقدر ولانقدر وليس نقدر

Twitter: @ketab_n

على ذلك. هو يريد القول، لن نستطيع باللغة الإيطالية ولكنه يعجز عن إيجاد الصيغة الصحيحة لفعل المستقبل. أقول له: لن نقدر، فيهتف: برافو، برافو، أنت تتقن اللغة الوطنية. نعم. أنا أتكلم الإيطالية وأكتب بها ولكن في أعماقي أشعر بأنني أخون النابولية وأعمد إلى تصريف فعل أقدر بالنابولية بصمت. لاتوافق أمي على رأي أبي. هي تقول نحن نابوليون وكفى. ثم تضيف: أميركا بالنسبة لي هي إيطاليا. نصف عائلتي تسكن هناك. الوطن هو المكان الذي يوفر لك الخبز. يرد أبي مازحاً: إذاً أنت وطني. هو لا يريد أن يخالف أمي. في بيتنا لا أحد يرفع صوته. لا أحد يتشاجر. إذا شعر والدي بالحنق فإنه يضع يده على فمه ويغطي نصف وجهه.

١٥

طلب المعلم أريكو مني أن أنظف الأخشاب وأدهنها. نظفت أبواب خزانة الثياب. أي مقدار من الثياب سيوضع في هذه الخزانة؟ لقد صنعنا خزانة بثمانية أبواب وطابقين. نطلق عليها إسم «خزانة الفصول الأربعة». اليوم جربنا الباب الأول وقد كان مناسباً للغاية إلى حد أن الخزانة بدت وكأنها تنفست الصعداء حين فتحنا الباب وخرج الهواء منها. طلب المعلم أريكو أن أضع وجهي بالقرب من الباب الجانبي فشعرت بالهواء يداعبني. على هذا النحو تداعب الأرواح وجهي. ثم قام بفصل الباب عن الخزانة وغطاه. إنه يتمتع بأهمية كبيرة

Twitter: @ketab_n

فهو يستطيع أن يوفر لنا العيش لسنة كاملة. الأدراج مصنوعة من خشب الزان والمفاصل من عقد مشبكة. يشعر المرء بالراحة وهو يرى الأشياء تخرج من بين يديه. يقوم بفحص الزوايا مرة تلو المرة. يدهن المسكات. يفتح الأدراج ويغلقها من دون أن يصدر عنها صوت، مثل خيط السنارة في البحر، يقول. أيها المعلم أريكو، أقول له، أنت شخص فريد، نجار وصياد في آن واحد.

١٦

كل صباح يشتري المعلم أريكو جريدة إيل مانيفستو. إنها غالية الثمن. بثلاثين ليرة. ولكنه يقول أن المرء يجب أن يعرف ماذا يجري في العالم. أحياناً يقرأ لنا بصوت عال بعض الأخبار: سقط السيف من يد تمثال روجير النورماندي أمام القصر الملكي. إشتباكات عنيفة بين الشرطة والعمال في جنوى.

صوت المعلم أريكو قوي. تبقى الأشياء التي يقرأها عالقة في ذهني. يوم الأحد يخرج إلى صيد السمك، يجلس على شاطىء البحر، عند الميناء، حاملاً السنارة في يده، يلبث هناك وسط جلبة السفن حتى المساء. أحياناً يبقى هناك وينتظر إلى أن يصطاد سمكة ساراغو. ساراغو أمام بوابة الميناء وتحت الصفحة السوداء لماء البحر أمر غير معقول. هذه أسماك محتالة مثل أولاد الشوارع ويتطلب الأمر الكثير من

Twitter: @ketab_n

الحنكة لإصطيادها من البحر. وينبغي وضع المحارة طعماً لها. ذات يوم سأعلمك، قال.

١٧

لا يظهر سمك الساراغو على مائدة طعامنا. نحن نأكل السردين. الساراغو غالي الثمن. ولكن المعلم أريكو يصطاده ويجلبه كل يوم أحد إلى البيت ويقليه مع قليل من النبيذ الأبيض. بأذن من السماء والبحر. يقول. هو يعيش وحيداً. يبلغ الستين من العمر ولا يلبس نظارات ولكنه يجهد كثيراً بعينيه. يكرر أخذ المقاسات مرات عدة لكي تكون حساباته دقيقة. الولد الذي كان يعمل عنده قبلي كان ذكياً ولكنه عاش في أوساط المافيا وانتهى به الأمر وراء القضبان. وهكذا أتيت أنا. إنه يستعين بنظري. أنا أعين له الميليمترات فيشرع هو في تحديد المكان الذي ينبغي أن يقطع فيه الخشب ويصحح المقاسات.

١٨

أقضي الأيام في تنظيف الخزائن وأدوات العمل وتكنيس نثارة الخشب ومخلفات النجارة. يكتسب جسدي قوة بفضل التمرن على البومرانغ. بدأ القميص يضيق عند كتفي. وأخذت شبكة من العضلات تبرز في أعلى الظهر. نشأت طبقة ثخينة من الجلد في يدي حيث أقبض على مسكة البومرانغ. مساءً على مصطبة الغسيل أقوم بالتمرن على الرمي أكثر وأكثر.

Twitter: @ketab_n

أقوم بكل الحركات التي يتطلبها الإطلاق. ثم أدفعه حتى النهاية، إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه الكتف والذراع. قوة الدفع تتضاعف. يهتز البومرانغ ويتأهب للإندفاع. يتصبب العرق من يدي وتنتشر رائحة خشب حارقة، حارقة أكثر من راحة الكستناء. لا أحد يراني. الأرواح فقط تداعب وجهي بأنفاس جافة. ثمة ضجيج في الشارع حتى في هذا الوقت المتأخر. أنا أقف في مكان أعلى من الجميع، على المصطبة مع سلال الثياب. والضجة الكبيرة هي تلك التي تطلع من البومرانغ وهو يشق الهواء من خلف أذني.

١٩

رافانييلو منهك. ينام متوتراً. حدبته تزعجه. ومع هذا فهو سعيد. هذا فأل حسن. يقول. يفتح قلبه لي حين يخرج المعلم أريكو ليشتري الخشب. روى لي حكايته. لقد جاء إلى نابولي عن طريق الخطأ. هو كان يريد الذهاب إلى القدس في أعقاب الحرب. نزل من القطار ورأى البحر لأول مرة في حياته. إنطلقت صافرة إحدى السفن فتذكر الحفلات التي كانت تقام في قريته. كانت تبدأ بصوت صافرة كهذه. إنجرف وراء الناس وأخذ يراقب أقدامهم. كان هناك كثيرون حفاة لا ينتعلون أحذية. كان الأطفال يشبهون أطفال قريته. إنه آت من قرية حل فيها بلاء أخذ كل الأطفال. الحشد في نابولي

Twitter: @ketab_n

أعادهم إلى ذاكرته. في بلده تضاءل عدد الناس ولم يعد أحد يسلم على أحد. أما في نابولي ففي وسع المرء أن يقضي النهار كله وهو يسلم على الناس ثم يعود إلى البيت مساءً خائر القوى من أثر ذلك وحسب.

٢٠

تجول رافانييلو في مدينتنا، التي كانت غريبة عليه، ومع ذلك بدت تشبه مدينته قبل الحرب. تشبهها بوجهها وصرخاتها وشتائمها وكان يستغرب من عجزه عن فهم كلمة واحدة مما كان يسمع. كان يشد أذنيه ليتأكد ما إذا كان ثمة عطل فيهما، وكان يضحك وهو يروي لي ذلك. وإخيراً أدرك الحقيقة. كانت المدينة غريبة. لا بد أن البحر كان يحيط بها ويسد عليها المنافذ، وكان عليه أن يبقى هناك فهو لا يستطيع الذهاب إلى القدس سيراً على الاقدام. السفن تذهب إلى أميركا وليس إلى الأراضي المقدسة. لهذا مكث هناك. سابقى هنا قليلاً. قال. إنها نهاية العام ١٩٤٥. هناك حاجة إلى الأحذية. الناس يتزوجون. نابولي مليئة بالأعراس. يبقى رافانييلو وينتظر. يسيطر علي الذهول حين أستمع إلى حكاياته في المحل. ينبغي أن أنفض جسدي كي أستعيد النشاط وأعود إلى العمل.

Twitter: @ketab_n

٢١

يعيش كل واحد منا مع ملاك. يقول. الملائكة لا تسافر.إذا أردت أن ترحل ستفقد ملاكك ويترتب عليك أن تعثر على ملاك جديد. الملاك الذي وجده في نابولي هو ملاك بطيء، لا يطير بل يمشي على الأقدام. لا تستطيع أن تذهب إلى القدس، هذا ما قاله له على الفور. وكم من الوقت يتعين على الإنتظار؟ سأله رافانييلو. عزيزي راف دانييل، أجاب الملاك الذي كان يعرف الإسم الأصلي لرافانييلو، ستسافر إلى القدس بجناحين، أما أنا فسوف أذهب مشياً رغم أنني ملاك. أنت سوف تطير إلى أن تصل إلى الجدار الغربي للمدينة المقدسة بجناحين قويين مثل جناحي نسر. ومن سيعطيني إياهما؟ يسأل رافانييلو بإلحاح. في الواقع أنت تملكهما. يجيب الملاك. إنهما في حدبتك. رافانييلو حزين لأنه لم يستطع السفر حتى الأن غير أنه سعيد لوجود هذه الحدبة التي كانت حتى الآن مجرد كيس من العظم لايفارق ظهره. جناحان، إنهما جناحان، يقول لي وهو يخفض صوته فيما تضيق عيناه الخضراوان المثبتتان على أعلى النافذة.

٢٢

كرر الملاك له، إذ لابد من تكرار الأشياء للناس مرتين، وقال: ستطير بجناحيك إلى القدس وهناك ستصنع الأحذية

Twitter: @ketab_n

مع الرابي يوهانان هاساندلر. أي الإسكافي دون جيوفاني بلغتنا. كيف كان الملاك في قريتكم؟ سألته. كلن يستطيع صنع الفودكا من الثلج. أجاب. أنا أعرف ما هو الثلج. لقد تساقط في نابولي عام ١٩٥٦ ونظف المدينة. لم تكن نابولي أكثر بياضاً قط. الثلج لاينظف بل يغطي. إنه يترك كل شيء كما كان ولايكنس شيئاً. يجيب رافانييلو فألوذ بالصمت.

٢٣

أصغي إلى أقواله وفي داخلي رغبة لأن أقول له أنني أنا أيضاً أستطيع الطيران، ولكن فقط في نابولي. أريد أن أقول له كيف يمكن القيام بذلك. كيف ينبغي تحضير الجسد لذلك. بأن الأمر كله يقوم في العينين، عندما ترفعهما تعلو وعندما تخفضهما تنزل. أريد أن أخبره عما تعلمت في المنام ولكنني ألزم الصمت. أنا أستطيع أن أطوف في الفضاء وحسب أما هو فإنه يملك جناحين بالفعل. ثم يأتي المعلم أريكو. أفرغ حمولة الأخشاب. إنها خشنة ولكنها لاتؤلمني. لقد إكتسب جلدي طبقة سميكة. أقوال رافانييلو تمدني سعادة كبيرة وأغدو خفيفاً قادراً على الطيران. مساءً وعلى مصطبة الغسيل تريد ذراعي أن تطير مع البومرانغ. أخفف من سرعة الإندفاعة وهذا ما يجعل العضلات الجديدة أقسى بحيث تبدو وكأنها تحمل مقلاعاً.

Twitter: @ketab_n

٢٤

يقول المعلم أريكو أن الصيادين لايتقنون السباحة وبأن السباحة هي عمل الذين يقضون عطلاتهم الصيفية فيذهبون إلى البحر ويلقون بأنفسهم وسط الأمواج بداعي اللهو ثم يتمددون تحت الشمس. الشمس تفيد أولئك الذين يرقدون تحت دفء أشعتها. أما بالنسبة لأولئك الذين تضرب الشمس ظهورهم من أول بزوغها حتى المساء فإنها تصير مثل كيس من الفحم. مثل حدبة رافانييلو، أقول لنفسي دون أن أتفوه بشيء. أنا مجرد صبي حمال في المحل ولا أستطيع أن أفضي بكل ما أفكر به للمعلم. وإذ ألزم الصمت يستمر هو في الكلام ويمضي الوقت بسرعة. الصيادون يذهبون إلى البحر في قوارب تعمل بالمحركات أو بواسطة المجاديف ولايلمس الماء جسمهم بل حتى لا يغسلون وجوههم. يضعون على رؤوسهم طاقيات لاتزحزحها الرياح. شيوخ البحر هؤلاء لا ينضحون برائحة الملح بل برائحة التبغ والعرق. في أيام الأحد يخرجون إلى المدينة وهم يرتدون قمصاناً ناصعة البياض. ليس ثمة الكثير من السمك في الخليج ولكي يفلحوا في الإتيان بشيء يضطرون إلى المكوث في قواربهم اليوم كله. تثيرني أخبار البحر. أنا لاأعرف الكثير عن البحر. أراها ولكني لاأعرفها. المعلم أريكو يخبرني كل شيء عنها عن طيب خاطر. الأجير الذي كان يعمل عنده قبلي كان يمل من الإصغاء إلى أحاديثه. كان المعلم يتحدث.

Twitter: @ketab_n

يقول أن كل يوم هو بمثابة لقمة. كان يقول ذلك بحزن ثم ينهي حديثه بالقول أن ملح البحر مر مثل العرق وأن كليهما لايصلحان للإستعمال في طهي المعكرونة.

٢٥

تظهر ماريا في عتمة غرفة الغسيل. كلانا في الثالثة عشرة من العمر غير أن أنها أكثر نضجاً مني فجسدها مكتمل تماماً. تحت خصلة شعرها القصير بعرض ثلاثة أصابع هناك فمها الذي يقذف الكلمات بسرعة. أرى الكلمات تخرج من زاوية شفتيها الممتلئتين. إبتسامتها تشق الوجه من الأذن إلى الأذن. ماريا تتقن حركات النساء. أقف أمامها وأشعر بأمعائي خاوية. تنابني شهية للخبز. أتوق إلى قضمة من شطيرة الخبز والزبدة التي في يدها. تمدها لي، أمتنع وأقول لا. لقد إكتشفت أنني أتدرب على البومرانغ. إنها فضولية. تشعر بي حين أصعد الدرج وأمر بالقرب من باب بيتهم. تدنو مني. المساء حار وينشر عطرها الذي تمتزج فيه روائح القرفة والشوكولاته والنعناع. يخترق العطر أنفي. إنه عطر فرنسي، تقول وهي تلفظ الراء من حنجرتها.

٢٦

في العتمة أحمل البومرانغ وأمده لها. ماريا تعرف ما هو

Twitter: @ketab_n

البومرانغ وما الذي يستطيع فعله. ولكن لماذا لاتقذفه كي يطير؟ تسألني. لأنني سأفقده، أجيب. ولكن لافائدة من البومرانغ إلا إذا طار. لاأعرف بماذا أجيبها. أنا اصعد إلى هناك كي أتهيأ لرمية واحدة. ذات مساء ستصبح ذراعي قوية جداً ولن أتمكن من عرقلتها وحينئذ سيطير البومرانغ. أفكر لحظة ثم أقول: أنت تحبسين طيور الكناري في القفص على البلكون أما أنا فأحبس البومرانغ. طيور الكناري تغرد، تقول ماريا. وهذا يصفر، أقول ثم أقرب مسكة البومرانغ من أذنها وأهزها كي تسمع صوت الهواء وهو ينشق من أثر الهزة. ماريا لاتخاف بل تضحك. تضع يدها على يدي وتفك أصابعي عن المسكة وتداعبها أصبعاً إصبعاً. أبلع ريقي. تمسك البومرانغ بيدها. تباً، كم هو ثقيل، تقول وتعيده إلي. ثقيل؟ أقول، كيف يكون ثقيلاً وهو مجرد قطعة خشب؟ ولكن ماريا تصر على رأيها بل تضيف أنه يحرق أيضاً. تقول أنها تعرف لماذا أتمرن. تضع يدها على كتفي وتقول: منذ بدأت العمل صرت قوياً. أخفض عيني. ترفع ماريا الشعر عن وجهي وتدفعه إلى الوراء. أنظر إلى وجهي حين أكلمك. تقول. ماريا تأخذ حريتها معي. العتمة تشجعها. إنها أطول مني قليلاً. وقد كبر صدرها. أبقى بلاحراك ثم أزيح يدها عن شعري. اباعد قليلاً ثم تستدير وتقول: غداً في مثل هذا الوقت سإعود وأخبرك سراً. أبقى لوحدي. مساء يمتلىء الهواء هنا في مصطبة الغسيل بالرائحة المنعشة لمنظفات الغسيل.

Twitter: @ketab_n

الأمهات يغسلن الملابس هنا وينظفن الدم عن الجروح التي تصيب صغارهن. أجمع الملابس عن منشرة الغسيل وأخرج.

٢٧

أمي تنام كثيراً. لقد اصيبت بمرض اليرقان من دون سابق إنذار وصار لونها أصفر مثل ثوم عتيق. أغمس الخبز في الحليب البارد. ليس مسموحاً أن أشعل الغاز. ذهب ابي ليبحث عن الدواء. ولكن يتعين عليه أن يبحث في نابولي طولاً وعرضاً قبل أن يعثر على صيدلية مفتوحة في الساعة العاشرة ليلاً. أضع البومرانغ على طاولة المطبخ بقربي. إنه معي طوال الوقت. أثناء العمل أخفيه تحت الجاكيت. ثمة أشياء جديدة تحدث. رافانييلو، ماريا، الطاقة التي تغمرني في مصطبة الغسيل. البومرانغ يأتي من البحر. قريباً سوف يطير وإلى أن يتم ذلك فإنه يساعد على تقوية عضلات فتى مازالت تفوح منه رائحة حبر المدرسة وقد بدأ العمل منذ شهر حزيران في محل للنجارة وبدأ يكتب يوميات حياته الجديدة بقلم رصاص على بقايا لفافة أوراق حصل عليها من عامل في مطبعة مونتي دي ديو. وتدور اللفافة وأرى الاشياء التي كتبتها والتي سوف تطوى سريعاً.

٢٨

المعلم أريكو يغني. حينما يواجه مشكلة ويبذل جهداً لحلها فإنه يشرع في الغناء. لايترك الأغنية بل يظل يرددها

Twitter: @ketab_n

حتى آخرها. أما رافانييلو فإنه يغني ولكن بصمت. يدندن من بين أسنانه. بالكاد يحرك شفتيه. من زاوية فمه تبرز مسامير أحذية. ومع هذا فإني أسمعه بالرغم من صوت المعلم أريكو الذي يرتفع مع مرور الوقت ويبلغ ذروته في منتصف النهار حيث يتوقف لتناول الطعام. تكون أشعة الشمس قد إخترقت الغرفة وشقتها إلى نصفين وتنهض ذرات من منشرة الخشب في الهواء لإستقبال الضوء.

غناء رافانييلو رائع. أنا أعرف أنه يغني حتى ولو كان ضجيج المنشار يملأ السماء. أسأله: أي الأغاني تردد يادون رافانيي؟ كان يعرف الكثير من الأغاني. الآن هو يردد أغنية واحدة فقط هي هذه التي يدندنها. لقد تربيت على ألا أطرح أسئلة كثيرة وأتحكم بفضولي. هو يلوذ بقليل من الصمت بما يكفي لكي أحضر سؤالاً ثانياً، ثم يشرع في الجواب. رافانييلو يجيب أيضاً على أسئلة لم تطرح قط. هو يدندن أغنية واحدة وحسب، بل ربما مقاطع منها. الكلمات تبشر ببناء بيت يصلي فيه الناس. كنيسة؟ أسأله. لا. إنه بيت يجلس فيه الناس للقراءة والصلاة والدرس. رافانييلو يبتسم. وهذا يعني أن حديثنا إنتهى. الحياة لقمة وثمة الكثير من الأحذية التي تحتاج إلى التصليح.

٢٩

إعتاد المعلم أريكو على أن يشد عينيه بسبب الغبار وتطاير

Twitter: @ketab_n

نتف الخشب. ومن أجل ذلك تشكلت طبقة من التجاعيد حول عينيه. عينا رافانييلو رطبتان على الدوام وهو يجففهما بظاهر يده. إستجمعت الجرأة لأقول له: دون رافانيي، يبدو أنك تبكي. إنه الهواء اللزج في الداخل. قال. جبل الرّب يجعل عيني تدمعان. يجففهما. يقول أن العيون تحتاج إلى الدموع كي تقدر على الرؤية بوضوح وإلا تصبح مثل عيون السمك التي لاتستطيع أن ترى شيئاً خارج الماء. الدموع هي التي تساعدنا على الرؤية، يقول. وهي تطلع دون أن نبكي. أهز رأسي موافقاً وأشعر بدمعتين على أرنبتي أنفي تزحفان للسقوط. إنهما تحثانني على البكاء. أستدير بسرعة. أمخط أنفي بأصابعي ويسقط المخاط على نثارات الخشب فأعمد إلى تكنيسه مع النثارات وأسرع في فعل ذلك لشعوري بالخجل ثم أغمغم لنفسي باللهجة النابولية التي تفيدني في حالات كهذه: ماذا تفعل؟ ثم أبصق على الأرض ولكن الدمعتين تواصلان الزحف ويلاحظ المعلم اريكو ذلك فيقول: عيناك تدمعان ياولد. يطلب مني ألا أقف في مؤخرة المحل ويدعوني للذهاب إلى مطبعة دون ليبوريو لشراء نصف قنينة من الشحم. في الطريق أرى كل شيء بوضوح. محل الفواكه ودكان السمك والسمكة الخشبية المشقوقة من وسطها والشحاذ الذي يقف منتصباً عند حافة النافورة ولا يجلس البتة وذلك لأن الناس يتحركون من دون توقف ولن

Twitter: @ketab_n

يعجبهم شخص جالس ينتظر الصدقات. معه حق رافانييلو. دمعتان فقط تكفيان لتحسين النظر.

٣٠

يناولني دون ليبوريو الشحم ثم يربت على مؤخرتي. لا أحتج فذلك لن يفيد وعلاوة على هذا فهو لن يستطيع أن يتمادى أكثر فأنا قوي وبإمكاني الإفلات من قبضتيه بسهولة. إنه ثقيل الخطوة وبطيء ويحب مداعبة الأولاد الصغار. وحين يضحك يبدو كما لو أن الصوت يخرج من طائر حمام وليس من رجل. في المطبعة يقوم بعمل كل شيء لوحده. لايأمن الأولاد جانبه ولهذا لايعملون معه. يعرف الناس ذلك ولكنهم لايكترثون للأمر كثيراً. ثم أن دون ليبوريو يفعل أعمالاً خيرة. لقد إشترى بذلة لعريس يتيم فقير. يقول الناس أن سلوكه لم يقتل أحداً. الأمر يتعلق بعادة سيئة وليس بمعصية. هكذا ينظر الناس إلى المسألة. يرسلني المعلم أريكو إليه لأنه يعرف أن دون ليبوريو لن يرفض طلبي للشحم. ولكنه يقول لي: عد فوراً، لاتهدر الوقت عند دون ليبوريو. وأنا أعود فوراً. دون ليبوريو يشبع نزوته في الربت على المؤخرة وهذا كل شيء. وهو كان أهداني لفافة الورق التي أكتب عليها. في طريق العودة إنتهى مفعول الدموع وصرت أرى الأشياء بوضوح أقل.

أحمل البومرانغ تحت سترتي. ماذا كان دون ليبوريو فعل لو أنني أخفيت البومرانغ في بنطالي؟ في المساء البيت هادئ.

Twitter: @ketab_n

أمي نائمة. أتناول القليل من الخبز المفتت في الحليب. من دون أمي لاتكون ثمة وجبات حقيقية. والدي يمضغ الخبز مع الزيت والبندورة. ألقي عليه التحية وأصعد إلى مصطبة الغسيل كي أتمرن ومن ثم أنزل بالغسيل.

٣١

تصعد ماريا أيضاً. نجلس تحت المشاجب الفارغة. يتصبب العرق مني والبومرانغ ساخن بكل الهواء الذي فيه. ماريا تلمسني. لاتتفوه بشيء، فقط تلمسني. في البدء تلمس صدري ثم تنزل نحو بنطالي. لا أعرف ماذا أفعل. ألبث جامداً وأنظر. تلمسني في مكان محدد فأستطيع بالكاد أن أبقي عيني مفتوحتين. أرغب في أن أغمضهما. أن أتنفس بعمق. لكنني أستجمع قواي وأقاوم الرغبة في إغماضهما. أحدق فيها كي أبادلها النظر على الأقل طالما أنني عاجز عن فعل أي شيء آخر. المكان معتم ولكنني أرى وجهها الصارم. تحرك يدها هناك في ذلك المكان المحدد ولا أعرف ماا لذي تفعله بالضبط. هي لاتنظر إلي، أما أنا فلا أحول نظري عن وجهها. لا أنظر إلى المكان الذي تلمسني فيه. تتوقف عند نقطة. ليس المكان الذي كان دون ليبوريو لمسني فيه بل على جزء من اللحم الذي بدأ يكبر مع حركات يدها. ثم تتوقف ماريا عن النظر إلى يدها. تنظر إلي فتراني أنظر إليها ورويداً رويداً تصعد إبتسامة إلى وجهها. وفي اللحظة التي أرى فيها

Twitter: @ketab_n

إبتسامتها أشعر برعشات في أسفل أحشائي، كما لو أن ثمة أنبوباً داخل جسمي، كما لو أن البومرانغ إنطلق من يدي وأفرغني بالكامل.

٣٢

أبحث عن البومرانغ وأجده هناك، بجانبي. تتوقف ماريا وتتناول منشفة. تنشف يدها. مم؟ لا أعرف. ربما من العرق مثلما يحدث معي بعد التمرين.عيني اليمنى تبللت، هي أيضاً، ربما لأنها بقيت مفتوحة على وسعها. ثم أنظر إلى أسفل جسمي وأرى شيئاً لم أره من قبل قط. قضيب منتصب، طويل وصلب ومائل قليلاً. لو لا ماريا التي كانت هادئة لكنت صرخت. ولكن ماريا كانت ساكتة ثم طبعت قبلة على شفتي السفلى. رضخت لها ولم أنبس بكلمة ولا سألتها عما يكون هذا القضيب. من فوقنا تتقاطع حبال نشر الغسيل في سماء شهر آب. يفرحني أن ليس هناك من فوقنا بيوت أو بلكونات، فنحن نقف على أعلى مصطبة في جبل الرّب.

٣٣

أفعل هذا مع صاحب البيت. تقول. ماذا تفعلين؟ أتضايق حين أسمعها تذكر صاحب البيت فهو أسوأ شخص عرفته. يسأل المستأجرين: متى ستدفعون الإيجار؟ وهو يفعل ذلك حين يكون هناك ناس يسمعون. يرفع صوته ويكرر السؤال:

Twitter: @ketab_n

متى ستدفعون الإيجار، وذلك لكي يشعر المستأجرون بالخجل.

هذا الذي فعلته معك أفعله معه. تقول ماريا. ألزم الصمت كي لا أتفوه بشيء متهور. هذا المساء أردت أن المس جسداً نظيفاً وأحدق في وجه شخص ينظر إلي ويحترمني. الآن انت حبيبي ولن ألمس صاحب البيت بعد الآن أبداً. لن ألمسه مهما حصل حتى لو طردنا من البيت.

هل قال لك ذلك؟ بأنه سيطردكم؟ أسالها. لا، لم يقل لي. ولكن أمي تقول أنه سيفعل. لأننا مدينون ويأتي الناس إلى البيت يطالبون بالنقود.ألوذ بالصمت. رغم أنني أعجز عن فهم كل شيء. أرى أن ماريا تحب البقاء معي على المصطبة. هي تحب البومرانغ أيضاً. تأخذه مني وتديره نصف دائرة. تشعر برعشة تجتاح جسدها. تطلق صرخة فرح: كيف أستطيع اللعب به وهو ثقيل إلى هذا الحد؟ ولكنه مصمم لكي يطير، أجيب. تسأل متى؟ فأقول لا أعرف بعد. هل يمكن أن أكون معك حين تنوي أن تفعل ذلك؟ تسأل. لا.أجيب. البومرانغ ليس لعبة. إنه سر كبير.سينطلق يوماً من يدي ويشق طريقه مودعاً كل العضلات التي ساهمت في بنائه. سيخلق ضجيجاً مفزعاً وقد يصطدم بأحدهم وسيهرعون للإمساك بالفاعل. وسيصعدون إلى قمة جبل الرّب. سيأتون إلى هنا ويسألون: من هو صاحب هذا البومرانغ؟ وسأجيب:

Twitter: @ketab_n

أنا. أنا قاذف البومرانغ. إنها تأملات صامتة لا تعرف ماريا عنها شيئاً. تأخذ رأسي بين يديها وتضعه على صدرها فأحس بجسدها الممتلئ النافر وبدقات قلبها التي تبدو أشبه بطرقات على الباب وأجد نفسي أقول: هيا بنا.

٣٤

تسحب ماريا أنفاساً عميقة. رأسي يعلو ويهبط على صدرها. تقول أن كل شيء بات على مايرام الآن. الآن هي تفعل ذلك، هذا الشيء الممتع للذكور، لي وحدي. هكذا هو ممتع وليس مقرفاً كما كان مع الجسد العجوز لصاحب البيت وحركاته حين كان يرقد فوقها. تبدر حركة من جسم ماريا، ترتجف، تنتفض، مثلما ينفض المرء غطاء الطاولة. تفتح عينيها. أرى أن وجهها قد إمتقع. ألتقط البومرانغ وأدير نقطة إلتقاء الجناحين إلى الأسفل وأمد جانبي فمي بإصبعي إلى الأسفل أيضاً. هكذا أصنع صورة كاركاتورية لوجهها. ثم أعيد البومرانغ إلى سابق وضعه فأرفع النقطة إلى الأعلى فيصبح مثل فم يبتسم وهذا ما أفعله بفمي أيضاً فينشرح وجهها وتطوق رأسي بيديها ثم تتركني وتمضي في حال سبيلها.

٣٥

يفرك رافانييلو حدبته بالجدار. يحكها. إنه يعمل بسرعة. يجب أن ينتهي من تصليح عدة أحذية لناس فقراء فشهر آب

Twitter: @ketab_n

هو رأس الشتاء كما يقال. الأحذية مهمة للصحة. يأتون إليه بأحذية مهترئة، متهالكة، فيصلحها لهم وينصحهم أن يغسلوا أقدامهم لأن الأحذية تعمر أطول حين تكون الأقدام نظيفة. والأفضل أن يفعلوا ذلك بمياه البحر فليس ثمة نافورات كثيرة في نابولي. لا يبالي رافانييلو بالرائحة الكريهة للأحذية ولا بالتقرحات المقززة على الأقدام المتسخة. لاشك أن أنفه مقدس. بالعكس من المعلم أريكو الذي لا يتحمل الروائح ويطلب منه أن ينقل كيس أحذيته من زاوية إلى أخرى. أنا اساعده ولكنني حين أحمل الكيس على كتفي أكتم أنفاسي. هو يعمل بإتقان. تبرز الحبوب الحمر بارزة على وجهه فيما يغلق عينيه الخضراوين. يقول لي أن الجناحين داخل الحدبة يصدران صريراً في الليل ويحاولان أن يتحركا ويسببا له الألم. شيء ما سوف يحدث.

٣٦

لقد أجرى عملية حسابية فعرف أن المسافة من نابولي إلى القدس تبلغ ألفي كيلومتر طيران. هل تفكر بالطيران من فوق البحر للوصول إلى هناك؟ لا. يجيبني. يجب أن تخزن الطاقة. لابد أن تأكل كثيراً مثلما تفعل الطيور المهاجرة قبل الرحيل. ثم أفكر، دون أن أحدثه، بأنه سيصل في أفضل الأحوال إلى كاستيلا ماري دي ستابيا في الطرف الآخر من خليج نابولي وسيعتقد الناس بأنه طائر كبير وسيطلقون عليه النار

Twitter: @ketab_n

لإصطياده. يالها من فكرة سخيفة. لا، لا. رافانييلو سيتمكن بجناحيه من الطيران حول العالم. سيفعل ذلك. ينبغي فقط أن يأكل كفاية. خفق بيضتين ورش عليهما السكر وتناولهما. لو فعلت ذلك فسأقدر أنا أيضاً على الطيران. ينظر رافانييلو إلي بعينيه الخضراوين الكبيرتين. يجب أن يكون الجناحان كبيرين للغاية كي يتحملا الحركة. نستأنف العمل. هو والمسامير في فمه، وأنا والمكنسة في يدي. أنظف المكان الذي يجلس فيه. وحين أقف خلفه أحس وكأن العظام في رقبته تطقطق فأتذكر البومرانغ. إنه ينتظر الطيران بدوره. يجب أن أريه إياه. لقد كشف لي عن سر حدبته ولكنني لم أبادله الثقة بعد.

٣٧

في المكان الذي يسكن فيه، وهو عبارة عن خزانة للملابس باتت تستعمل كغرفة، لايوجد مصباح كهربائي. مساءً يضيء شمعة. يضعها على طرف كرسي. يقول أنها يجب أن تكون واطئة لأن الضوء يريد الصعود إلى الأعلى. يقول أيضاً أن الشمعة تنير العتمة ولكن لاتبددها. ينهض الضوء من فتيل الشمعة فيأخذه كأس النبيذ الزجاجية ليتوهج بداخلها. ويتلألأ الزيت ويشعر الخبز بالنور فينضح عطراً. ماذا تأكل غير ذلك؟ أساله. بصلة. يقول. يالروعتها إلى جانب الشمعة. يتمنى المرء أن يقبلها بدلاً من أن يشقها. وتتألق حبات الملح وهي تنزلق من بين أصابعه حين يرشها على

Twitter: @ketab_n

الطعام أمام الشمعة. وإذ يخبرني عن هذه الأشياء اليومية يخطر لي أنني لم أرقب هذه الأمور قط في ضوء شمعة. فهي تبدو أجمل.هذه أطعمة غنية تكفيه لكي يكمل مسيرة الطيران إلى القدس. ثم أنه يقول أن الغرفة تصير أكبر مع شمعة واحدة. على الجدران تتحرك الظلال وتصير رفاقاً له ويقول أيضاً ان الشمعة تمنح الدفء في الشتاء. في آخر المساء أكتب هذه الملاحظات عن رافانييلو ثم أطفئ الضوء. أبي وأمي لا يحبان الشموع. كانا يستعملانها أثناء الحرب.

٣٨

نقلوا أمي إلى المستشفى. البيت جامد وهادئ. لا أستطيع أن ألبث ساكناً. أنظف البيت، أصنع القهوة لوالدي، كل ذلك لكي يكون هناك شيء من الحركة تكسر رتابة السكون. بات مسموحاً لي أن أشعل الغاز وأطهو قليلاً من المعكرونة بحيث تكون جاهزة حين يرجع والدي مساءً. أنا أيضاً معي مفتاح البيت. قريباً سأبلغ الثالثة عشرة من عمري وسيكون في وسعي أن أخالط الكبار. سأتخلص من رائحة الطفولة. الصوت أيضاً. الآن باتت نبرتي خشنة، تتدحرج وهي تخرج من حنجرتي ولكن دون أن تغدو أكثر وضوحاً. إنها تختنق تحت الضوء القديم. أحاول أن أحررها ولكن عبثاً. يطلع الصوت مرتبكاً مثلما يكون حين ينطق المرء أولى كلماته في الصباح وهو يبلع ريقه. مازال خشناً، ثقيلاً.

Twitter: @ketab_n

ولكن الأيدي هي التي تتغير مع الزمن أكثر من أي شيء آخر. الآن صارتا قادرتين على الإمساك بالأشياء بإحكام. وقد توسعتا بحيث باتتا تحتويان البومرانغ بسهولة. فقدت الخشبة ثقلها وأعطته للذراعين وقبضة اليد والأصابع. ليس ثمة هدف أسدد إليه. هناك الفضاء المفتوح، الهواء الرتيب الذي يمتلئ برائحة الصابون والمنظفات.

ذات مساء خريفي، حين يبرد الجو ليلاً وتبدأ البيوت بإغلاق نوافذها سأرمي رميتي. لن أرى كل سنتيمتر من الرمية. كل مساء أتمرن مائة مرة لكل ذراع.

٣٩

مع حلول العتمة صعدت ماريا إلى مصطبة الغسيل. لم تلمسني. لم تبادر إلى إخراج عضوي من البنطلون. لقد قالت لصاحب البيت: كفى، فجن جنونه وهددها بطردهم من البيت. اهل ماريا مدينون له بأجرة البيت لأشهرعدة. بصقت ماريا أمامه ومضت في طريقها. إنها تبدي شجاعة كبيرة. لقد غدت إمرأة وتعرف ما يثير القرف. لقد إنتهت المهزلة. تقول. إنتهى الوقت الذي يدعوها فيه بالأميرة حيث ترتدي ملابس زوجته الراحلة. يجعلها تلبس الحلي والمجوهرات، ثم يبدأ بمداعبتها ويطلب منها أن تداعبه. الآن لم تعد ترغب في ذلك لأنني صرت هنا. أنا هنا الآن. فجأة أصبحت شخصاً مهماً. حتى الآن لم يكن حضوري يعني شيئاً لأحد. ماريا تقول أنني هنا الآن. ولذلك

Twitter: @ketab_n

صرت أنا أيضاً أشعر أنني هنا. أسأل نفسي: ألم يكن في وسعي أن أدرك أهمية نفسي بنفسي؟ يبدولا. ويبدو أنني بحاجة إلى شخص آخر كي يكشف لي عن ذلك.

٤٠

نجلس على المصطبة تحت شرفة غرفة الغسيل. تطلب ماريا مني أن أضع يدي على صدرها. يصيبني الإرتباك قليلاً غير أنني أستجيب لها. الغرة السوداء على جبهتها تسحب قليلاً من الهواء المنعش القادم من الغرب فيجفف وجهها. نلبث ساكتين ننظر إلى بعضنا لعدة دقائق. لم أكن أعرف أن تبادل النظر عن قرب أمر ممتع إلى هذا الحد. أغلق عيني السليمة. بالعين الأخرى لا أرى بوضوح. ولكن عوضاً عنها يعمل أنفي فيستيقظ ويلتقط رائحة العرق من جسد ماريا والرائحة اللاذعة لخشب البومرانغ الذي يرقد على ذراعي. أما هي فتغلق إحدى عينيها للحظة ثم تفتحها وتغلق الأخرى وننظر إلى بعضنا، ونبدأ بالضحك وتبدأ هي ببوح تكشيرات على وجهها كي تبدل درجات نظرها. قالت: أهتم بك. أنا أيضاً أحبها ولكنني لا أستطيع أن أقول ذلك بتلك الطريقة الحاذقة ولا أستطيع أن أجيب: وأنا أيضاً لهذا ألزم الصمت.

٤١

ذهب صاحب البيت إلى بيت ماريا وطرق الباب. فتحت

Twitter: @ketab_n

ماريا الباب فتوسل إليها وهو يجثو على ركبتيه أن تذهب معه إلى البيت. هزت ماريا رأسها إلى الوراء إشارة للرفض وقالت: لا. من المطبخ جاء صوت الأم وهي تسأل عمن يكون وعندئذ ثارت ثائرة الرجل وقال أنه سيطلب من المحكمة أن ترسل رجال الشرطة كي يحجزوا على أثاث البيت وأن يجبر الأم على التوسل إليه لكيلا يفعل ذلك فجثت الأم على ركبتيها وهي تتوسل إليه غير أن ماريا لم تفعل ذلك وكانت تعرف أن توسلات أمها عقيمة لأنها لن تذهب أبداً إلى الرجل العجوز. سألتها إن كانت أمها تعرف شيئاً عن الزيارات. لم تجب. فتحت يديها ثم قبلتني على شفتي. أنت عشيقي، أنت عائلتي. إذا طردنا من البيت سآتي إليك. قالت. يبدو أن الحب يولد أفكاراً عجيبة.

٤٢

مازالت هناك ألبسة على حبال الغسيل. يمكن لإحداهن أن تأتي لجمعها وإنزالها. إنها ملابسي، تقول ماريا، جلبتها كذريعة للقدوم إلى هنا. لقد شرعت أغسل وأكوي كي تقدر أمي أن تخرج بحثاً عن النقود لدفع الإيجار. لماذا لاتستطيع عائلتك أن تدفع الإيجار مع أنها أفضل حالاً من عائلتي؟ أسألها. لأنهم يصرفون كل شيء على اللعب والقمار واليانصيب. بعد اليوم لن أحمل النقود إلى صاحب البيت ليعدها ويقول: إنها ناقصة. فلتذهب أمي بنفسها.

Twitter: @ketab_n

٤٣

لاتذهب ماريا إلى الكنيسة يوم الأحد. تقول أنها لا تستطيع الإعتراف للكاهن عن زياراتها إلى منزل صاحب البيت. لا تستطيع طلب المغفرة. أقول لها أن صاحب البيت يذهب إلى الكنيسة ويعترف ويطلب المغفرة فتقول أن الكاهن في مثل عمره. إنهما يسويان المسألة فيما بينهما. أنا أحتاج إلى كاهن في الثالثة عشرة من العمركي يفهم وضعي ويدرك أننا مجرد أدوات بأيدي الكبار. نحن لا نساوي شيئاً في نظرهم. الرب يشاهد كل شيء يا ماريا. أقول لها. نعم. هو يرى كل شيء ولكنني أبذل ما بوسعي كي أسوي الأشياء فيما يجلس هو ويراقب المشهد دون أن يفعل شيئاً. أبلع شتيمة ماريا للرب. يحمر وجهي وأحس كما لو أن أنني أنا الرب الذي يرى كل شيء ولا يحرك ساكناً.

٤٤

تبدأ العضلات تتصلب من أثر رميات البومرانغ. الآن أنا لك يامارياً. نحن عشيقان. ولكن، بالمناسبة يامارياً، ماذا يفعل العشاق؟ يمارسون الحب، يتزوجون، يهربون. تقول بثقة. أتوقف عن طرح الأسئلة. يكفي أنني لمحت لها بالأمر. ننظر إلى بعضنا. العيون تتسع في العتمة. هي تبتسم ويتحرك عضوي من تلقاء نفسه..عندما تفتح فمها وتظهر أسنانها أشعر بالدفء. أحيط كتفيها بذراعيّ أشد قليلاً. هذه أول مرة أبادر

Twitter: @ketab_n

فيها إلى ملامستها. أول مرة تبدأ المبادرة مني. تضع ماريا رأسها على ذراعي فلاأعود أرى وجهها. يهدأ عضوي. أشعر بقوة عجيبة في داخلي. لقد قوت التمارين عضلاتي فصرت قادراً على إحتضان ماريا. تنهض وتحمل الملابس على صدرها وكإشارة على التحية تمد عنقها من أجل قبلة. أمد فمي إلى فمها وننجز قبلة عميقة بالتساوي. العشاق ينجزون الأشياء بالتساوي.

٤٥

في الدكان أخرج البومرانغ من تحت سترتي وأضعه هناك كي يكون بارزاً للعيان. يحمله المعلم أريكو، يتحسسه، يحركه. إنه ثخين. يقول، ثم يبصق عليه ويمرر بصاقه بإبهامه. أنزعج من ثقته المفرطة بنفسه. البومرانغ قديم. غريب. إنه سلاح. كيف يتجرأ على فعل ذلك؟ يريني المكان الذي بصق عليه. لقد صار لونه بنفسجياً. يضع فمه عليه. إنه مملوء بالقطران. هو مصنوع من شجر السنط. أخبره كيف حصلت عليه. يقول انه لايصلح لشيء. إنه قاس للغاية. في وسعه أن يؤذي الأشياء. لاتستطيع حتى أن تستعمله كعكاز. لايفيد في الحطب أيضاً. لابد أنه يفيد في شيء ما ولكنه لايعرف ما هو بالضبط. حين يعيده إلي يشعر بصعقة كهربائية في يده.ينتفض مدهوشاً: هل هو كهربائي؟ أنا لم أشعر بشيء، أقول كاذباً، ذلك أنني تعودت على صدمات البومرانغ. يمتقع وجه المعلم

Twitter: @ketab_n

أريكو تماماً مثلما يحصل حين يعجز عن فهم شيء ما ثم يهتف: هيا لنرجع إلى العمل، تعال.

٤٦

أضع البومرانغ بالقرب من رافانييلو. كومة الأحذية التالفة تتضاءل فبين يديه تبدأ الأحذية بالمشي متباهية وهي تشع بالشحم وتنضح رائحة جلد سعيد. في منتصف النهار، حين يذهب المعلم أريكو لتناول الغداء، يأتي أصحاب الأحذية لأخذها بعد أن تكون قد جددت. حين تطل الليالي الباردة يزداد الفقراء تعاسة. يتدثرون ببطانية صوفية من أيام خدمة الجيش أو يرتدون سترتين معاً أو كل القمصان التي بحوزتهم، إذا لم يكن ثمة شيء آخر أفضل.

آه أيها الدون رافانيي، ليجعلك الله غنياً كالبحر، يقولون له رداً للجميل في تصليح أحذيتهم من دون مقابل. إذ لولا ذلك لما كان في وسعهم تصليح أحذيتهم. ثم يزيدون في الدعاء له بالصحة والسلامة والحفظ من الأمراض وعيون الحساد وألسنة السوء. فليحمك الله من من النار والتراب والأشرار. فليخرج الذهب من حدبتك. يشعر رافانييلو بالسعادة. يقولون أن الأدعية أغلى من النقود لأنها تصل إلى السماء. ثم يقول أن اللعنات أيضاً تصل إلى السماء. ويبصق على الأرض كي ينظف فمه من الكلمة اللعينة.

Twitter: @ketab_n

٤٧

الشخص الذي يبيع الأمشاط متجولاً في الشوارع كان وضع حذاءه عند رافانييلو ومضى حافي القدمين. ها قد عاد ليأخذ الحذاء. يجلس، يفك الخرقتين الباليتين اللتين ربط بهما قدميه. يأتي رافانييلو بالحذاء. يبدو الحذاء جديداً لدرجة أن صاحبه لايتعرف إليه. ينهض الرجل ويحتضن رافانييلو من حدبته ويشده إلى صدره بقوة ويشعر رافانييلو بالألم في جناحيه داخل الحدبة. أحضر بائع الأمشاط معه حوضاً ملأه بالماء ثم وضع قدميه المتسختين فيه وأخذ ينظفهما وذلك لكي يكونا جديرين بالحذاء الذي تنبعث منه رائحة الشحم والزيت. إنه يفعل ذلك إحتراماً لرافانييلو الذي يلح دوماً على نظافة القدمين. يريد أن يهديه مشطاً مصنوعاً من العظم غير أن شعر رافانييلو الأحمر الكثيف المجعد يتطلب مشطاً من المعدن على أقل تقدير. يحتضنه ثانية ويقبله قبل أن يمضي وهو ينادي في شوارع جبل الرّب نداءه الشهير، باللهجة النابولوية، الذي يضحكني: أمشاط، أمشاط كبيرة وصغيرة، كل من في رأسه قمل تعال وإشتر مشطاً. أما في الإيطالية فلن يغامر أحد بشراء مشط من شخص يشير إلى القمل. صوته قوي. وفي الأخير يصيح: دون رافانييلو، معلم الإسكافيين، إنه يجعل المشلولين يمشون ثانية.

٤٨

ثمة فقراء آخرون لا يعمدون إلى إظهار إمتنانهم على هذا

Twitter: @ketab_n

النحو. من أعماقهم تطلع أصوات خفيفة، خجولة، وهي تحمل دعاءات هادرة كالمدافع. يجيب رافانييلو: ميرزاشي، وتعني بلغته: إن شاء الله. لاشيء يستطيع أن يقيد الدعاءات التي تنمو في نفوس الفقراء. إنها تطلع من أقدامهم وتمر بكامل أجسادهم قبل أن تخرج من أفواههم. يشعر الفقراء بنوع من العرفان لايشعر به حتى الملوك. وهم لا يوفرون جهداً لمساعدته على الرحيل إلى القدس. هذا ما يقوله هو وأنا أصدقه. وقت الغداء أغلق المحل. يخلع رافانييلو جاكيته ويسألني عما إذا كنت ألاحظ شيئاً على الحدبة. أرى خطاً كجرح ونقطة بنفسجية في أعلاه. إنه يبدأ يتشقق. يقول. مثل قشرة البيض. أعلق البومرانغ بالخيط الذي كنت ربطته داخل سترتي وأصعد إلى البيت.

٤٩

على الدرج أمر بمحاذاة صاحب البيت. أعض على لساني كي لا أسلم عليه. هو لا يلمحني. يصعد سريعاً، يلهث، يتجاوز الطابق الذي يقع فيه بيته، يمضي نحو بيت ماريا. أرى أنه يحمل علبة حلوى. لأول مرة أفكر في البومرانغ باعتباره سلاحاً. إنتابتني رغبة في أن أرميه به. الفكرة جعلت الخشبة أثقل. أدخل البيت. إنه فارغ وصامت. أفتح النوافذ وأدع هواء الخريف المثقل بالهواء الغربي يدخل الدار. أمي

Twitter: @ketab_n

لن ترجع إلى البيت وأبي يتجول صامتاً. لايدخل إلى غرفتي ليرى إن كنت هناك. إن كنت نائماً. لقد نشأ ما يشبه الجفاء بيننا. أحضر له العشاء بالنقود التي يتركها على الطاولة. على ورقة أدون الأشياء التي إشتريتها ثم أضع باقي النقود بالقرب منها. الأجرة التي أحصل عليها من المعلم أريكو أحتفظ بها لنفسي في هذه الفترة. أتذكر الأغنية التي كانت ترددها أمي وهي تقف بالقرب من سريري بعد الصلاة:

تعال أيها النوم من الجبل

تعال أيها القمر الفضي وأضئ جبهته

أضئ جبهته دون أن تؤذيه

كان الغناء يثقل على عينيها فتغلقهما. الآن أستلقي للنوم دون أن يقول لي أحد تصبح على خير. أستلقي على جانبي وأهتم بنفسي وحيداً، تماماً مثلما يفعل رافانييلو حين يستلقي للنوم.

٥٠

مازلت أصلي. في المخدع الصغير الذي أنام فيه لا توجد نافذة. وحين أردد صلاة الملاك الحارس يبدو لي وكأنني أقف على مصطبة الغسيل حيث السماء مفتوحة بلا نهاية بدلاً من السقف. لا أعتقد أن ما أفعله يعبر عن إيمان. إنني أقوم به بحكم العادة. كخاتمة لكلمات المساء. يقول رافانييلو أن الله

Twitter: @ketab_n

موجود بسبب إلحاحنا. نتيجة لصلواتنا ظهرت أذناه وبسبب دموعنا تشكلت عيناه ولمرأى أفراحنا بانت إبتسامته. مثل البومرانغ. أفكر: بفضل التمارين تتهيأ الرمية. ولكن هل ينشأ الإيمان من التدرب؟ أدون كلماته لأكررها. قد أستوعب معناها فيما بعد.هو يقول أيضاً أن على المرء أن يغني كي يعطي للأفكار متنفساً وإلا فإنها تصبح كالطين في الفم. حين أشرع في ترديد الأغاني بصوتي الخشن فهذا يعني أن ثمة فرحاً كبيراً في المحل. يبذل المعلم أريكو جهده كي يسمع غنائي رغماً عن صوت المنشرة. أسأل. دون رافانيي، هل صرت نابولياً من أثر بقائك في نابولي؟ لا. يقول مازحاً. النابوليون هم على الأرجح إحدى القبائل العشر التي ضاعت في إسرائيل. ماذا تقصد؟ هل ضاعت عشر قبائل؟ وكم بقي منكم إذن؟ قبيلتان فقط. الأولى هي قبيلة يهوذا التي سمي اليهود بإسمها، وهذا الإسم مأخوذ من فعل شكر. هذا يعني أن كلمة يهودي معناها شكراً؟ هذا هو معنى الكلمة بالفعل. الحال أن كل المخلوقات يجب أن تحمل إسماً كهذا. إسم يحمل معنى الشكر.

٥١

اليوم هناك القليل من شمس تشرين الثاني الفاتر، الدافئ، ولهذا خرج الناس إلى الشارع وأخذوا كراسيهم إلى جوار مناشر الغسيل ومناقل الشواء. لقد خرج أبو الفقراء: الشمس.

Twitter: @ketab_n

يقول المعلم أريكو باللهجة النابولوية. في أوقات البرد يخلع بطانيته على أكتاف أولئك الذين لايملكون بطانيات. في جبل الرّب إرتفعت أصوات الباعة المتجولين الذين أخذوا يستغلون الفرصة ليرفعوا عقيرتهم بالصياح كي تصل أصواتهم من الشارع إلى البيوت عبر النوافذ المفتوحة. زيتون غاييتا، زيتون حلو مثل السكر. هذه النداءات تملك قوة ساحرة تدفع الناس إلى الوقوف في النوافذ لإستطلاع الأمر. كما أعمل وعيناي معلقتان بإتجاه الشارع. لم أكن أشتهي الزيتون بل الخروج إلى الهواء الطلق. سريعاً أدرك أن العمل هو هذا: أن تبقى في الداخل بينما الشمس تمر منخفضة وسرعان ما تبدأ بالرحيل ليأتي المساء وأنت لاتزال مسجوناً داخل المحل دون أن تتمكن من إلقاء التحية عليها. غن. يقول رافانييلو. الأفكار بحاجة إلى الهواء. إنها تحتاج إلى فم كي تخرج. أرد بالإيجاب بحركة من رأسي ولكن من فمي لا تخرج أية كلمة. مجرد همس خفيف وحسب. حينما أكون في الخارج وسط أقدام الآخرين، يمكن للأغنية أن تخرج من فمي، غير أن النظرات وحدها تستطيع أن تخرج الآن. الباب مفتوح. تأتي الريح القادمة من البحر وتنشر رائحة الميناء هنا في الأعالي. أحس أنني أشم رائحة جاكيت والدي حيث يختلط الشحم والملح والقطران والصدأ.يسيطر علي الحزن: بدلاً من الغناء أو الكلام أعبىء رئتي برائحة البحر والريح. نداءات الزيتون تقترب. أفكر بوالدي الذي يعمل الآن في مخازن

Twitter: @ketab_n

الشحن وربما هو أيضاً يريد الخروج إلى الهواء الطلق. إنه يستحق ذلك أكثر مني أنا الذي أعيش أولى حالات الكآبة.

٥٢

في الصيف أذهب مع أمي إلى محل عمل والدي وننتظر عند البوابة إلى أن يحين موعد تبديل نوبته. لم نكن نعلم ما إذا كان قد إنتهى من العمل في الوقت المحدد أم أنه سيشتغل ساعات إضافية أيضاً. كنت أقف هناك، في ميناء بيفيرلو، أراقب الناس يصعدون إلى السفن البيض التابعة لشركة سبان. كانوا يذهبون إلى الجزر. يصعدون ويهبطون بقبعات مصنوعة من القش. كان ثمة بينهم من أحرقت الشمس وجوههم وكانت أمي تضحك إذ تشبههم بالبندورة. البندورة تمشي على الأرض. لم يكن من عادة أمي أن تتشمس ولم تذهب قط إلى الشاطئ. أنا لم أصعد قط إلى أية سفينة ولكن إذا سنحت الفرصة لذلك فلن أرتدي قبعة من القش أبداً. كنا ننتظر أبي كي يخرج مرتدياً جاكيته الجميل وقميصه النظيف وقد زرره حتى عنقه وغسل وجهه ومشط شعره. كنا نجتمع كأسعد عائلة على البحر. نمشي حتى نصل ميرغيلينا مروراً بسانتا لوسيا حيث يشتري أبي لي سكاكر وحلويات. كانت أمي تعطيه ذراعها فأروح إلى الجهة الأخرى حيث يدها الحرة. كان الناس يتجنبون الإصطدام بنا كي لايفرطوا حلقتنا.

Twitter: @ketab_n

في نابولي يحترم الناس كثيراً العائلات. وحين يمرون بالقرب من بعضهم يتبادلون التحية.

٥٣

أبي طويل القامة. بعلو خزانة الملابس. ويكاد رأسه يصطم بسقف الباب حين يدخل البيت. حين يسير في الشارع فإنه سرعان ما يلفت الإنتباه لقامته. أمي أيضاً طويلة وشعرها اسود فاحم. هي ضعيفة تبرز الأعصاب في وجهها. حين يفاجئها شيء ما يصير سلوكها مخيفاً. تتحول إلى ما يشبه نابض متحرك يمكن لها أن تكسر كل شيء من حولها. تستطيع أن تطوي الشوكة حين تأكل إذا ما واتتها فكرة مزعجة. لقد توقفت عن إعطائها يدي أثناء تجوالنا معاً، فقد كانت تغرق في الأفكار فتشد على يدي بعنف شديد أكاد معه أنفجر بالبكاء. والدي يقول أنها أقوى منه. على الشاطئ لم يكن هناك صبي أكثر فخراً مني. حتى في النوادي البحرية التي يرتادها السادة الأغنياء كنت في صحبة أبي وأمي أحس بأنني أملك ثروة لا يستطيع أي كان أن يمتلكها.

٥٤

كنا نتمشى على الشاطئ أمام مبنى البلدية حين كان صيادو السمك يقفون على الأرض ويجرون شبكتهم الكبيرة من الحبلين في طرفيها. كانوا ستة رجال وكانوا يشدون في وقت

Twitter: @ketab_n

واحد. أكبرهم سناً كان يعطي إشارة البدء. كان الحبل يدور على أكتافهم وكانت أجسادهم تهتز على أرجلهم المتصالبة وهم يسحبون البحر إلى البر. كانت الشبكة تتضاءل رويداً رويداً وهي تدنو فيما كان الحبلان يتكومان في حلقتين على الشاطئ. كانت الاسماك تتلألأ في الشبكة وهي تخرج من الماء. كان البياض يتراقص على أجسادها وكانت أذيالها تتخبط معاً بالمئات. كانت الشبكة تهتز على الأرض بكومة الحياة التي خرجت من الأمواج. يقول أبي: هذه نار البحر. كانت رائحة البحر عطرنا الذي يضمخ نهارنا صيفاً وشتاءً تحت ضوء الشمس. كنا نلبث هناك صامتين، متلاصقين. ولقد إستمر ذلك حتى العام الماضي. حتى ذلك الحين كنت لم أزل طفلاً.

٥٥

كانت رائحة البحر صعدت إلى حارتنا وحررتني من الحزن. لاحظ المعلم أريكو أنني مشتت الذهن فطلب مني أن أشرب حساء الأخطبوط. إنه كفيل بتهدئة خاطرك وتصفية ذهنك. قال. بائع الأخطبوط يقف على ناصية الشارع. إنه يبيع هذا الصنف فقط. المعلم أريكو يعرفه. يعرف أنه يصطادها من بين الأحجار المربعة للسد. هو لايصطادها، يقول، بل يلتقطها بيديه مثلما يلتقط المرء الحصى. يقوم بإطعامها بالمحارات فتأتي إليه وتفتح أصدافها. يضع المحارات على

Twitter: @ketab_n

يديه فتأتي تلك إليه وتلتقطها. يعرفها واحدة واحدة. وضع لكل واحدة رقماً ليناديها بأرقامها. يدخل إلى الماء وينادي رقماً فتأتي الأخطبوطة وتهرع إلى يده. يقتلها دون أن يسبب لها أي ألم. لا تحتاج الأخطبوطات إلى المقاومة. حتى الكبيرات منها تخضع له دون تأفف. ليست ثمة صغيرات عنده. إنه يبيع الكبيرات وحسب. إذهب إليه وتناول حساء الأخطبوط.

٥٦

وقت الغداء يخبرني رافانييلو عن الوقت الذي كان يعيش فيه في بلدته وكان إسمه آنذاك المعلم دانييل، راف دانييل. كان يعمل كصبي عند إسكافي. وكان هذا رجلاً صارماً بخلاف المعلم أريكو. لم يكن يعلمه المهنة، بالعكس كان يخفي الكثير من الأشياء عنه. كان رافانييلو يمعن النظر معظم الوقت ومن ثم يتعلم المهنة في الحلم عند إسكافي يرد إسمه في كتبهم المقدسة. كان يأتي إليه ليلاً ويعلمه فنون الإسكافيين. بعد العمل كان رافانييلو، وهو صغير، يعمد إلى قراءة أشياء عن الإيمان. كان النعاس يغلبه وهو منحن على الكتاب المفتوح أمامه. ولهذا كان من السهل أن يخرج أحد القديسين من الكتاب ليساعده. إسكافي الحلم يدعى راف يوحانان هاساندلر، المعلم جيوفاني الإسكافي، وهو يلقنه سر المهنة الأمر الذي لم يكن الرجل يفعله. لقد تعلمت فن

Twitter: @ketab_n

الأحذية من التلمود. إنه كتاب عن أشياء مقدسة في بلده. دون رافانيي، كنت تذهب إلى المدرسة بينما كان الآخرون نياماً. لم تخلد للراحة أبداً. أما بالنسبة لي فالليل لايشكل شيئاً مهماً. لو أن الحظ جاء في المنام ليكشف لي أرقام اليانصيب سأقول له: تعال غداً. في الليل لا نفع مني على الإطلاق. أنام مثل ميت.مثلما أغلق عيني هكذا أفتحهما في الصباح. في الوضعية نفسها. كل صباح هو إنبعاث جديد.

٥٧

نجلس حول طاولة الأحذية. هو يحك حدبته على الحائط. أنا أمسدها له قليلاً. تحت الجاكيت تتحرك العظام، عظام الجناحين. تجمعنا علاقة ود وتفاهم. لهذا أقول له: النساء يلدن من الأمام وأنت من الخلف. الرجال لايملكون شرف الولادة. يجيب. نجلس ونأكل معاً. يمخط فمه ويبصق. يفعل هكذا حين يهم بقول أشياء مقدسة. في بلدي كنت أقرأ الأناشيد، حيث يرد السؤال التالي: من سيصعد إلى جبل الرّب؟ والجواب هو: من كانت يداه طاهرتين وقلبه نقياً. ثم إندلعت الحرب.جاءت من الغرب ومرت علينا. أحرقت الناس والأرض. لم نكن نعلم أن لنا أعداءً. إختبأت تحت روث البهائم، تحت الرصيف، في كهف مهجور. قاومت. لم أكن أعرف لماذا أريد البقاء حياً بعد أن مات الجميع.تمردت على الموت. تمردت على الله بأن أردت

Twitter: @ketab_n

الحياة. صرت كافراً. إختبأت. أكلت وشربت كل شيء متاح. طبخت لحاء الشجر. سرقت العسل من قفير النحل. شربت بولي مع الثلج. زوجة يعقوب قالت له. ودع الله ومت. لم يقل يعقوب ذلك. لم أقل أنا أيضاً ذلك. لم أودع الله ولم أمت. الحرب طهرت قلبي وغسلت يدي بالكلس. حين إنتهت الحرب كنت جاهزاً لتسلق جبل الرّب.

٥٨

يخبرني بقية حكايته في اليوم التالي حيث يهطل المطر غزيراً. ماء كثير، مهدور، نقي وجميل، يسير إلى منتهاه في البحر دون أن يعمد أحد إلى ملء وعاء منه لكي يطبخ به المعكرونة. السيدة سبيرانتسا، زوجة الملك، تحتفظ بماء مطر شهر أيار. تقول أنه مفيد للعيون. يختلط الصوت الرقيق لرافانييلو مع صوت هطول المطر في الشارع. صوته يسابق المطر. مثلي خرج آخرون من شعبي من أماكن الإختباء. هم أيضاً كانوا إختبأوا في كهوف كلسية وكانوا مستعدين للرحيل. إتجهنا جنوباً صوب إيطاليا المحاطة على الطول بالبحر. بلد رائع للغاية يأسف المرء لأنها تنتهي ولا تمضي أبعد وأبعد. كنا نحاول الوصول إلى الأرض التي تذكرها كتبنا المقدسة. لا جوازات سفر لدينا ولاحقوق. نحن الأحياء الذين رفض الموت إستقبالهم. الإنكليز يغلقون البحر. لا يسمحون لنا بالسفر. تراودني فكرة شريرة: تحصن في جبلك. دع الإنكليز

Twitter: @ketab_n

يذهبون إلى القدس. يمكن أن تأخذهم إلى شعبك. ثم يغير الموضوع. يترك الإنكليز وشأنهم ويلتفت إلي ويؤنبني بطريقته الساخرة: جبل الرّب، نعم. ولكن في نابولي. هنا بوسعهم أن يصنعوا أشياءَ تقليدية من كل شيء. من التحف القديمة والساعات الفاخرة والسجائر الأميركية. ولكن صنع جبل يفوق قدراتهم. لا يمكن له أن يوجد إلا في القدس. هنا على قمة هذا الجبل حيث من الممكن رؤية البحر وفوهة البركان. يمكن للمرء أن يهيىء مصطبة يطل منها على مشهد بانورامي وليس مسنداً لقدم الله. ومع هذا فقد شاؤوا أن يسموا هذا المرتفع جبل الرّب. وحين كانوا على وشك ذلك خطرت لهم فكرة أن يسموا المرتفع المجاور جبل الفارس. وهكذا كان أن ظهر جبلان. يقول رافانييلو مازحاً. ولا بد للمرء من أن يتقبل المزحات فعندما يريد الله أن يتحكم بالناس يمازحهم. مع بالغ الإحترام ليست هناك فروع للأرض المقدسة. ومع هذا فقد بقيت هنا. على قمة «جبل الرّب» آخر، مثل سائح ضل الطريق. لابد أنه صوته الرقيق أو ربما الرغبة الجارفة في الإصغاء إليه ما يجعلني أسمعه من جديد وأكتب ما قاله على رزمة الأوراق في هذا المساء مع المطر الذي يواصل هطوله ويمنعني من الصعود إلى مصطبة الغسيل.

٥٩

إسكافي غريب يتكلم الإيطالية بطلاقة بحيث أشعر بالشفقة

Twitter: @ketab_n

على والدي الذي يجهد لتعلم اللغة ولكنه لا يعرف نصف ما يعرفه رافانييلو. هل جاءتك كل هذه الكلمات الإيطالية في المنام؟ أسأله. لا. يجيب، لقد تعلمتها من الكتب وقد قرأت قصة بينوكيو مرات عدة. أنا أيضاً قرأتها، أقول وأنا أشعر بالفرح لأننا إشتركنا في شيء واحد. يقول أنه في بلدهم كانوا سيسمون بينوكيو يوسل وكان سيبقى إلى الأبد في هيأته الخشبية وفاءً لصانعه. الآن صرت تعرف عن حياتي منذ كنت راف دانييل وعن أهالي بلدي الذين لم يبق أحد منهم على قيد الحياة. من يمت يرث حكايته لأولاده وأقاربه من بعده. أما شعبي فقد أورث حكايته لي وحدي وأنا أرويها لك لأنني سأرحل قريباً، ما إن تنفتح هذه الحدبة المصنوعة من الريش والعظم. كيف هي القدس يادون رافانيي، هذه التي لا يستطيع أحد أن يقلدها؟ ينظف فمه، يبصق، ثم يقول أنه لم يتعرف إليها بعد ولكن أحدهم أخبره عنها: في هذه المدينة يخاف الموت أن تبلعه الحياة. إنها المدينة الوحيدة في العالم التي يخجل فيها الموت من البقاء. يغلق عينيه، يهز رقبته، ويستمر هناك.

لا بد أنه مكان خاص، هنا في نابولي لا يخجل الموت من أي شيء على الإطلاق.

٦٠

رافانييلو يحب الثوم والزيت ولكنه لا يحب البندورة.

Twitter: @ketab_n

وقت الغداء تتألف وجبته من الخبز والخضار. أما وجبتي فهي السردين. يقول أن لدي أسراراً. أن بوسعه أن يقرأ أفكاري. ألزم جانب الصمت. يسأل عن صحة أمي. منذ أشهر لم أرها. والدي لا يريد ذلك. يقول أنها راقدة في ما يشبه الخيمة. مربوطة بأنابيب وأنه هو فقط يستطيع زيارتها. لكي أغير الحديث أقول له: هل تعلمون، يا دون رافانيي، بأنكم قد قمتم بالرحلة نفسها التي قامت بها القديسة باتريسيا؟ هي أيضاً كانت تريد الذهاب إلى القدس ولكن عاصفة أجبرتها على النزول في نابولي وتركت وراءها معجزة دمها. الدم يجف ثم يسيل دون إنقطاع، أكثر من دم القديس جينارو. يصغي رافانييلو بانتباه. هل تريد أن تعرف كيف نزفت القديسة باتريسيا؟ ذات ليلة عمد أحد المؤمنين إلى فتح مقبرة القديسة وبمساعدة ملقط إنتزع واحدة من أسنانها كي يحتفظ به كذكرى. ولكن سرعان ما بدأ الدم يسيل من موضع السن المنزوعة. هكذا بعد مائة عام على وفاتها. جمعوا الدم ووضعوه في وعاء زجاجي. وبدأت المعجزة. دون رافانيي، تحدث هنا أشياء لو تكلم عنها أحدهم لظنوه مخبولاً.ومع هذا فهي تحدث.هذه المدينة غامضة مثل سر. مثل القدس. نعم، نعم. هاهنا الناس مشغولون بالدم. إنهم يحلفون بالدم. يشتمون بالدم، يأكلون الطعام ممزوجاً بالدم، ثم يذهبون إلى الكنيسة ليقدسوا الدم. النساء بشكل خاص يتعلقن بالدم بشكل مسعور.آه، أيها الدم. حتى وجبة يوم الأحد تشبه الدم

Twitter: @ketab_n

بلونها الداكن. يبتهج رافانييلو لثرثراتي التي أرويها بصوت غامض وخشن.

٦١

في غرفة الغسيل تقول ماريا أن العجوز صعد إليهم بالحلويات. خرجت الأم لتشتري القهوة فنهض إليها وأخذ يتوسل إليها قائلاً بأنه إذا لم تذهب إليه ماريا فسوف يموت. قلت له: مت. هناك كثيرن يموتون وهم أكثر شباباً منك. مت أنت أيضاً. تبدل لون وجهه من البني إلى الأحمر. حاول أن يمسك بي فإستدرت حول الطاولة فعجز عن اللحاق بي. أنت سيئة، كان يقول وهو يلهث ويتطاير البصاق من فمه. ثم توقف فجأة ووضع يده على جبهته. هدأ قليلاً ثم إنصرف. أما نحن فقد إلتهمنا الحلويات التي تركها وراءه. ماريا تقول أنه سيموت. لقد رأت الموت على وجهه حين قالت له: مت. إن كلمة واحدة تستطيع أن تفتك برجل. ماريا تعرف أشياء كثيرة. مثلاً هي تعرف كيف تكون أقوى من شخص بالغ.

يلجأ الكبار إلى إعطائي إرشادات حين يتعاملون معي ولكنهم لايفعلون ذلك معها. فوق ذلك في مقدورها أن تهاجمهم. هي كذلك ربما لأنها أنثى ومرت بتجارب مريرة. إنها تبلغ الثالثة عشرة من العمر وصدرها يكبر أسرع مما تكبر عضلاتي التي أمرنها بالبومرانغ. تدعني ألمس نهديها. تقوق لي: إنهما لك.ينتصب قضيبي في الحال ويتجمع اللعاب في

Twitter: @ketab_n

فمي. تسألني إن كنت أريدها أن تمسك به بيديها فأقول: لا يا ماريا، لا تفعلي معي ما كنت تفعلينه مع العجوز. تقول: حسناً، معك حق. نحن يجب أن نمارس الحب. ولكنها تقول ذلك بالنابولية: أفيمما فا أموري، وذلك بحرف الميم المزدوج لأن ذلك يبدو أكثر رقة وحناناً. أما أنا فأقول: ولكننا نمارس الحب الآن. تقول لا. إنه شيء آخر. نخلع ملابسنا ونتمدد على السرير مثل زوجين.

٦٢

المساء منعش على مصطبة الغسيل. في السماء تمتد الغيوم في هيئة عظم السمك بفعل ضربات الريح الآتية من الأعلى. أزيد عدد الرميات في التمرين لكي أتدفأ. عيد الميلاد يقترب، لقد بدأ الزمارون يصعدون إلى جبل الرّب نهاراً. تحمل ماريا بطانية إلى المصطبة فنجلس على الأرض ونغطي أنفسنا بها. حينما ننتهي من الكلام تمد فمها إلى فمي وتقبلني. هذه هي التحية. نحن لا نقول مساء الخير، إلى اللقاء، إلى الغد. لاشيء من هذا. قبلة وينتهي الأمر. أتمرن للحظات أخرى. يتدفأ البومرانغ في الحال. الخشبة ترتجف، تشق الهواء، تتجه نحو السماء. الزم مكاني بقدمين ثابتتين ولا أدع حركة الذراع تؤثر في وضعيتي حين أرفع يدي لألتقط البومرانغ في الهواء. الذراعان تنتصبان في الإتجاه نفسه، تماماً مثل نهدي ماريا. تنتصب أيضاً لفافة الورق من الجهة المكتوبة. لا أقرأ ماكتبت حتى الآن، ارى

Twitter: @ketab_n

فقط أن الورق يتكدس. الجزء الباقي يتضاءل أكثر وأكثر. لا تعرف ماريا أنني أكتب عنها على هذه اللفافة.

٦٣

جاء صاحب البيت إلى المعلم أريكو يطلب أجرة المحل. رآه المعلم أريكو قادماً فقال: فيني تشيللو كي تيني. ها قد أتى من يملك. وقصده من ذلك أن هناك من الناس من يعمل ويملك ومنهم من يملك ولا يعمل. أتى من يملك. لا ينبس ببنت شفة. يقف هناك صامتاً وقد غطى التعب وجهه كما لو أنه لم يذق طعم النوم. يكافئ؟؟ المعلم أريكو يقول صباح الخير ويدفع الأجرة التي كان هيأها من قبل. وحين خرج المالك قال: هناك ما يقلق العجوز فرغم جشعه الكبير فإنه لأول مرة لم يعد النقود. أساله إن كان الرجل جشعاً حقاً فيقول: بل أكثر من جشع، يده عذراء، لم يفلح أحد في فك أصابعه. تذكرت ماريا فتجرأت على الإدلاء برأيي في أن الرجل سيء فأنبني المعلم أريكو على الفور. من يتكلم من وراء ظهر الناس يحصل على الجواب من المؤخرة. شعرت بالحرج لأنني تكلمت من وراء ظهر الرجل. على الإنسان إما أن يتكلم وجهاً لوجه أو يسكت.

٦٤

قضيت بقية اليوم وأنا أفكر بعمي توتو الذي لم ألتق به قط. لقد قتل بقنبلة من الطائرة بينما كان واقفاً أمام البريد

Twitter: @ketab_n

المركزي في منتصف النهار. كان الأخ الاصغر لوالدي وقد ذهب إليه في البيت ثم خرجا معاً إلى العمل. في الطريق توقفا في جادة مادينا لأن عمي أراد أن يصبغ حذاءه. شطرته القنبلة إلى نصفين. كان والدي هرب حين نزلت القنبلة وعندما عاد بعد سقوطها وجد عمي في مكانه. كانت منضدة الحذاء سليمة أما عمي فكان إنشطر إلى قسمين. كان الوقت شهر تموز وقد كست الجثث طبقة كثيفة من الغبار ولم يكن ثمة ذباب فقد مات هو أيضاً. بقيت هذه الأشياء في ذاكرته وهو يعود ليرويها في كل مرة يتذكر فيها عمي. كل عام يصطحبني والدي لوضع الزهور على المقبرة الجماعية التي تشبه حديقة حيوانات للموتى. إنهم محشورون هناك. لقد ذهبت في يوم الأحد في الخريف إلى حديقة الحيوانات بصحبة أبي وأمي. أخذنا خبزاً جافاً وأعطيناه للفيل الذي كان يتناوله من يدي بخرطومه وكنت أحس بالإرتياح كما لو كان يداعبني. كان والدي يفرح وهو يسمعني أردد الأسماء الصعبة للحيوانات. أعطينا رغيفاً أيضاً لفرس البحر الذي كان يفتح فمه الهائل فأقذف الخبز إلى داخله. قطف والدي بعض الأوراق من شجرة اليوكالبتوس ولم يكن يستطيع نطق هذا الإسم فيقول كاليبسو. كان يضع الأوراق في جيبه لرائحتها العطرة التي يحبها. وهو يعمد إلى تنشق رائحتها حين يكون في القبو.

Twitter: @ketab_n

٦٥

تحمل الأقفاص أسماء علقت خارجها. داخلها تقبع الحيوانات ساكنة. سكونها هو شكل مقاومتها لنا فلا ترضي نهمنا. الذئب وحده يتحرك جيئة وذهاباً داخل الشبكة وهو يفعل ذلك حنيناً إلى الحرية وسعياً في الحركة. إنه ينظر إلى البعيد، إلى نقطة بعيدة، ولكن ليس ثمة ما هو أبعد من قفصه. ينتظر وهو يتحرك أن يأتي صياد أو مخلص لينقذه. هذا ما أعتقده. الموتى هم حيوانات محشورة تنتظر الإنبعاث من جديد. عمي توتو ذئب يتوق إلى الإبتعاد عن جادو مادينا، عن اليوم الذي حشروه فيه مع الموتى. أنا أكبر منه هو الذي توقف عن أن يكبر قبل أن يكمل العاشرة بيوم واحد. لم يذهب إلى المدرسة ولهذا فإن والدي يهتم كثيراً بأمر التعلم في المدرسة لكي لا أضطر إلى البقاء في الشوارع.

٦٦

تأتي مساءات جميلة وباردة تتخللها الرياح التي تجتاز فوميرو وسان مارتينو وتمر من فوق جبل الرّب قبل أن تصطدم بالحر. أنتظر أن تصعد ماريا. أتمرن وأنظر إلى السماء لعلني أرى هدفاً. حين أطلق البومرانغ أغلق عيني السليمة وأفتح العين الأخرى التي تستطيع النظر إلى بعيد دون أن تدمع. ثم نشرع أنا وماريا في مراقبة النجوم في السماء. هي تقول أن السماء غطاء وأنا أقول أنها شبكة وكل نجمة عبارة

Twitter: @ketab_n

عن عقدة فيها. هي تقول أننا تحت السماء وأنا اقول أننا على السوية نفسها معها وأننا نمضي في الأرض ونطوف في السماء مثل العوامات.

٦٧

يطل عيد الميلاد. الدائنون يتهافتون على بيتها. يطرقون الباب. يحدثون جلبة. على الدرج ضجيج وصياح. الأم ترفض أن تفتح الباب. الأب ترك البيت وغادر. في البيت أرى في الساعة السادسة حين أهيىء له القهوة. أنا أيضاً أرتشف القليل. لا يقول شيئاً. حين كانت أمي في البيت كنت أشرب القهوة. والآن كم أحب أن أدخن أيضاً دون أن يلاحظ والدي ذلك. الكبار يخرجون لملاحقة متاعبهم ونحن نلزم البيوت الصماء فلا نسمع أي شيء من الخارج. فقط نسمع أصواتنا ونشعر بالخوف. الأشباح تداعب وجهي في المطبخ الفارغ وتهدئ من روعي. البومرانغ يلتصق بي على الدوام ويبعث الدفء في أوصالي. لا بد من أن خشبته كانت شجرة نمت تحت شمس حارقة فبقيت تحتفظ بالحرارة. تقاوم ماريا البرد بالإحتماء بالمعطف وبي. أقف أمامها لأصد عنها الريح وأحميها.

عيد الميلاد مقبل. تقول ماريا. فلنذهب لشراء فروج ونشويه. لنفعل ذلك لوحدنا من دون مساعدتهم. سيكون أروع عيد ميلاد. سأصنع الكعكة في الفرن، تقول ماريا

Twitter: @ketab_n

وتضع قبلة على شعري البارد. تهطل القبلات مع ريح الشمال.

٦٨

أخبرني والدي أنه سيقضي عيد الميلاد مع أمي في المستشفى.وانه مشكلتهما، هذا المرض، أما أنا فواجبي هو الإهتمام بالبيت والإنتظار. أنتظر. أنتظر أن يطير البومرانغ، أن ينطلق من يدي ويضيع في الظلام ثم يمضي ليصطدم بالنجوم. يصطدم بغطائها كما تقول ماريا أو يقع في شباكها كما أقول أنا. أشعر بأن البومرانغ بات أكثر خفة وإستعداداً للإنطلاق. سيحدث ذلك قريباً. في الوقت نفسه بدأ رافانييلو يشبه الطير. بات أكثر نحافة وبرزت عظام وجهه. يجب أن تأكل يادون رافانيي، الخبز والبصل والثوم لايكفي. الرحلة طويلة وها قد حل الشتاء. الطيور الأخرى رحلت ووصلت إلى أماكنها. أعرف ذلك، يقول. في بلده كان يشاهد طيور اللقلق في شهر أيلول وهي تجتمع في السماء لترحل إلى أفريقيا وتمر بالقرب من القدس. في رأسي تبزغ عين لقلق وستدلني إلى الطريق. ومتى سترحل؟ أسأل. حين يطير غصن شجرة الميلاد. لقد أخبرني الملاك بذلك. أتهيأ لليلة رأس السنة. حينذاك يرمي أهالي نابولي أشياءهم القديمة. أحدهم سيرمي غصن شجرة الميلاد من دون أن يدري بذلك. ثم يقول بصوت يشبه صوت عصفور: سيفعل ذلك لأنه لم تعد

Twitter: @ketab_n

ثمة قوانين أو وصايا في اللوح. هذا صحيح، أقول لنفسي، في تلك الليلة لن يكتشف أحد طيران رافانييلو.

٦٩

أقف والمكنسة في يدي غارقاً في الأفكار. يعود المعلم أريكو مبكراً ويقول: هل تحب العمل إلى هذا الحد؟ نعم.أجيب. أتناول الطعام مع دون رافانييلو. يتذكر المعلم أريكو أنه لا يوجد أحد في بيتنا ويدعوني إلى بيته وقت الغداء لتناول طعام منزلي. غداً ستصلني كمية من الأجيرولا. هل سبق أن تذوقتها ياولد؟ إنها جبنة من نوع خاص. لاشيء يفوق جبنة الأجيرولا. الأبقار هناك ترعى على أوراق شجر الحور. هذه الأوراق هي التي تمنح الجبنة ذلك الطعم القارص المميز. ألا تريد أن تأتي؟ أشكره وأقول أن الأمور على مايرام. أنا أبقى في المحل بإرادتي وقت الغداء. حسناً، كما تشاء. لن أكرر الدعوة مرة أخرى. يقول المعلم أريكو ذلك وهو يشعل سيجارته التوسكانية ويحمل المنشار ويبدأ العمل. علاقته برافانييلو لا تتعدى تبادل التحيات. ولكنهما يفعلان ذلك بمودة كبيرة. إنهما يحترمان بعضهما بعضاً. صنع دون رافانييلو الأحذية لكل أبناء جبل الرّب. من قبل كنا نمشي حفاة تقريباً. وأنت أعطيتني مكاناً أنام فيه وحطباً أتدفأ به. من دونك كنت سأتسكع في الأزقة على الميناء. بتلك القبعة الحمراء لم يكن في وسعك الذهاب أبعد، ولاسيما مع سلة البرتقال.

Twitter: @ketab_n

٧٠

في المحل يقرأ المعلم أريكو لنا خبراً في الجريدة عن شخص يحمل لقب «المنحوس». في لحظة من اليأس يقرر أن يرمي نفسه من النافذة فيقع على عابر سبيل مسكين عديم الحظ كان يمشي في الشارع في تلك اللحظة. عابر السبيل يلقى حتفه فيما ينكسر ضلعان في صدر المنحوس. ياولد، هذا رقم الحظ. يقول المعلم أريكو، هو يقصد أنه يجب أن نلعب بهذا الرقم في اليانصيب. ثم يمضي إلى القرن الأحمر المعلق على باب المحل فيلمسه. يردد رافانييلو بعض الكلمات بلغته ليطرد الشياطين ثم يبصق على الأرض. في بيتنا لا أحد يؤمن بالخرافات. والدي يقول أن النساء يعتقدن بهذه الأشياء. أمي تقول أنها مجرد ترهات وأن الرجال أكثر تمسكاً بها من النساء. نحن، يقول المعلم أريكو، موجودون في هذا العالم جراء خطأ إقترفه الله وأننا غائبون عن الأنظار فإذا ما أفلحت عين شريرة في إكتشافنا كان ذلك نهايتنا. عندنا لا يقول أحد للآخر: بارك الله فيك لأن الناس سوف يعتبرونه نحساً إذا ما وقع حادث لذلك الشخص. حتى ولو تعلق الأمر بمجرد إلتواء القدم. سيقع اللوم كله على الشخص الذي قال له تلك الجملة وسيبقى هذا الشيء يلاحقه طول العمر. رافانييلو يقول أنهم، في بلده، يسمون صاحب العين الشريرة «آنوري». هو يقول انه يتذكر أن أمه كانت جميلة وأن الناس كانوا يمطرونها بالإطراءات حتى حين حبلت. وهي تقبلت

Twitter: @ketab_n

هذه الإطراءات دون أن تحمي نفسها من الأعين الشريرة ولهذا فقد رزقت بولد ذي حدبة. وقد أنبها أهلها إذ لو أنها نطقت لفظة «كانا نوري» لكانت رزقت بولد سليم. العين الشريرة تفسد كل شيء، يقول المعلم أريكو.

٧١

دون ليبوريو يشعر بالخوف حتى ولو تمنى له الناس الخير. في شهر آب يغلق المطبعة أسبوعاً ويمضي للتنزه في جبال ماتيزي. بينما كان ينقل حقائبه إلى سيارة الأجرة التي ستنقله إلى الباص إلتقى بالدون فرديناندو الذي يعمل في مكتب دفن الموتى والذي يوفر له الكثير من الزبائن الذي يأتون إليه لطباعة أوراق النعي. وفضلاً عن هذا فهو صديقه الحميم. شاهد الرجل الحقائب فقال: رحلة سعيدة يادون ليبوريو. وأجاب دون ليبوريو: شكراً ولكنني لن أسافر بل إنني وصلت تواً من السفر. وأخذ الحقائب من السيارة وعاد بها إلى البيت. ثم أنه سافر في اليوم التالي. هو نفسه روى ذلك للمعلم أريكو الذي كان رأى المطبعة مفتوحة بعد الظهر فسأله لماذا لما يزل في المدينة. مكره أخاك لا بطل. كيف أسافر بعد أن تمنى لي حفار القبور رحلة سعيدة؟ ثم وضع المعلم أريكو الجريدة والفناجين جانباً وأخذ يردد تعويذة خاصة بالنجارين: أيها القديس جوزيف، غط كل شيء، غط هذا الحديث.

Twitter: @ketab_n

تحدثت إلى رافانييلو عن ماريا وصاحب البيت. صمت لحظة ثم أغلق عينيه وقال: إنه كالكلب الذي يلحس المبرد. وأصبح صوته بارداً مثل ريح الشمال فسرت قشعريرة في جسمي. ماذا تقول يا دون رافانيي؟ إنها لعنة. قال، ولكن بصوته الطبيعي هذه المرة. أنا أقولها ولكنها ليست لعنتي. إنها تستفيد مني كي تخرج. لقد لقت حكايتك آذاناً صاغية فهبت على هذا الرجل عاصفة هوجاء. هناك أشياء كثيرة يصعب علي فهمها ومن ذلك حكاية الكلب هذه. دون رافانيين هل لعنة الكلب مخيفة؟ إنها مخيفة، الكلب الذي يلحس المبرد يستمر في لحس دمه ويتلذذ بالعذاب إلى أن يجف دمه. حل الظلام وحان وقت إغلاق المحل. لقد إنتهيت من التنظيف. أساعد رافانييلو لإعادة طاولته إلى مكانها. هناك صوت طقطقة العظام في الحدبة. ينظر إلى الأعلى ويعيد كيس الجناحين إلى مكانه. عيناه الخضراوان المدورتان تبحثان عن نقطة يمكن له أن ينطلق منها. لقد رفعت المدينة جدرانها ومصاطبها، ليست ثمة فسحة للسماء. ولكن في وسعه أن يهتدي إلى طريقه حتى في الظلام. ففي رأسه بوصلة اللقالق. أنزل الدرفة الخشبية. أتبادل تحية الإنصراف معه. يقول أنه أمر جيد أن يكون للمرء جناحان ولكن الأجمل أن تكون له يدان قادرتان على العمل.

Twitter: @ketab_n

دوى صوت المعلم أريكو في الحارة. كان غاضباً إلى أبعد حد. كان هناك بناء يعمل على البلكون في الطابق الأعلى، وكان يصر على إصلاح إفريز البلكون. في لحظة ما إرتفع صوت في الشارع. خرج المعلم أريكو مسرعاً ورأى الأحجار الصغيرة التي كانت سقطت من البلكون. صرخ على البناء أن ينتبه أكثر فهناك ناس وأطفال في الشارع. أجاب البنّاء أنه يعرف كيف يعمل. عندئذ إحتد المعلم أريكو وصرخ: إنزل أيها القرد. حرك قدميك وإنزل وإلا صعدت إليك لأكسرهما. قال ذلك باللهجة النابولية. وهوتكلم بأعلى صوته لدرجة أن صمتاً مفاجئاً خيم على الحارة. رأى البنّاء أن الأمر ينذر بسوء العاقبة فنزل. كان الناس يراقبون المشهد من نوافذ بيوتهم وكان المعلم أريكو يقف في وسط الشارع. خرجت لأكنس الأحجار الصغيرة التي كانت وقعت. توقف أنت. قال لي. هو سيفعل ذلك. كان الموقف بالغ الخطورة. إنس هذا الرجل يامعلم أريكو. لا تكن عنيداً هكذا. دع الولد يكنس الحجارة. كان هذا صوت دون ليبوريو، صاحب المطبعة، وقد هدأ من روع المعلم أريكو. هيا، دعنا نتناول فنجاناً من القهوة. ثم أمسك بذراعه وأخذه إلى نهاية الشارع. قمت بكنس الحجارة، أما البنّاء فقد عاد إلى عمله.

Twitter: @ketab_n

أخذت النسوة يتكلمن فيما بينهن ويقلن أنه كان على حق. نساء نابولي لا يسعين أبداً إلى تنقية الأجواء بين الرجال. أكبرهن سناً قالت أن المعلم أريكوهو شخصية شعبية وأنه عمد أثناء إنتفاضة أيلول ضد الألمان إلى حشد جميع ابناء الحارة لطرد الألمان في نابولي كلها. قالت أخرى أنه حين يكون في الحارة شخص مثل المعلم أريكو لا يبقى أي أثر للجانحين. لقد تعلمت الكثير عن حوادث الماضي من النساء اللواتي يتحدثن في الشارع. في تلك الأحداث كان والدي يقف على باب محله لحمايته من أي هجوم. كان أهالي نابولي في حالة هياج وكانوا يقفون في وسط الشارع ويهتفون للألمان: إنقلعوا. ويدلونهم على طريق الهرب بالنار. وسقط ضحايا كثر من أجل ذلك. ولهذا سألت المعلم أريكو عن كل ذلك في اليوم نفسه. أجاب أن الجميع كانوا في الشارع: دون ليبوريو، دون جوجو، البواب، النساء، الأولاد. كان الجميع كتلة واحدة. واجه الألمان صعوبة كبيرة في التقدم فأمطروا البيوت بالقنابل، وفي الأخير قرروا إعتقال الشباب وترحيلهم إلى ألمانيا كي يعملوا للألمان. وأخذوا يطلقون النار على كل من تسول له نفسه الرفض. لم يبق في الشارع سوى الكبار في السن والنساء. لم نرغب في الإختباء بل فضلنا مقاومتهم. لم يرد الأميركان الدخول إلى نابولي بل فضلوا التريث أما نحن فقد سئمنا من الإنتظار.

Twitter: @ketab_n

أردت أن أسمع المزيد. بعد لحظة ألححت عليه أن يحكي. لم يرفض المعلم أريكو طلبي. القسيس دون بيتيريللا نفسه إنخرط في ذلك. نتيجة القصف المتكرر آثر أن يقيم القداس بسرعة، ربع ساعة في أفضل الأحوال. وقد أضحى ذلك عادة له ولهذا باتوا يدعونه دون فريتيللا (الدون السريع). وفي إحدى المرات دوت صفارات الإنذار بينما كان يقيم القداس وكان على وشك الإنتهاء منه. قال: إهربوا، إنتهى القداس. وكان هو أول الهاربين وأخذ يعدو كالأرنب حاملاً ثوبه الطويل بيده ولحقه بعد لحظة صاحب البيت الذي إحتل المركز الثاني أما المركز الثالث فكان من نصيب الجنرال المتقاعد دي فرونجيليس. وفي معارك شهر أيلول خرج دون بيتيريللا إلى الخنادق ليس من أجل إطلاق النار على الألمان بل لكي يرفع معنوياتنا. وكان يمنح الغفران للمصابين بجروح قاتلة بمن في ذلك جندي ألماني. كان أهالي جبل الرّب خرجوا من بيوتهم عن بكرة أبيهم. حين فرغ من الكلام قلت: هذه مدينتي. كان رافانييلو يصغي وهو جالس وكان يكفكف الدموع من عينيه المدورتين. لم تكن الدموع تخرج لتسيل على خديه بل كانت تجتمع في عينيه وترجع إلى حيث كانت.

Twitter: @ketab_n

تكلم والدي إلي. قال أنهم يرون بعض الأمل في أن تشفى أمي. روى لي ذلك وهو يرتشف القهوة في الساعة السادسة حيث كانت الحارة لاتزال راقدة تحت الصمت والعتمة. لن يكون ثمة إحتفال بعيد الميلاد هذه السنة. إنها الوحيدة التي تشغل بالي وهي تتشبث بي بما بقي لديها من قوة. هي ضعيفة ولكن يديها قويتان. لديها مسكة شديدة حتى أنها كسرت كأساً وجرحت يدها. سنخوض هذه المحنة معاً. هذا شيء يخصنا نحن الإثنين وحسب. شيء يعود إلى الماضي البعيد حين كنا ننزل إلى الملجأ أثناء القصف وكنا نعاهد بعضنا بأن نبقى معاً وأن لاشيء من شأنه أن يباعد بيننا إذا نجونا من القنابل. حين كانت القنابل تسقط قريبة منا كان ضغط الهواء يجعلها تتقيأ. كنت أحمل رأسها بين يدي وكانت تتلوى من بين رجلي وكنت سعيداً لأن حبنا كان قادراً على الصمود في وجه ذلك أيضاً. كنا مخطوبين آنذاك ولكن علاقتنا كانت أوثق من علاقة زوجين. كانت الحرب تجبرنا على ذلك. إذا رحلت فسوف أصير مثل مسكة باب من دون باب.

بذل والدي جهداً كبيراً كي يتكلم الإيطالية. كان يريد التحدث إلي. لقد منحني ثقة كبيرة. لم أقل شيئاً. نظرت إلى وجهه مباشرة. لم يكن هناك شيء يمكنني فعله. الشيء الوحيد الذي كان في وسعي القيام به كان المكوث أمامه

Twitter: @ketab_n

والإصغاء إليه بكل جوارحي، ثابتاً في مكاني، مثبتاً نظري بالكامل عليه.

ثم أنه طرد الأفكار السوداوية بعيداً. سنعود، نحن الثلاثة، إلى سابق عهدنا وكأن شيئاً لم يكن وسنذهب للتنزه أيام الأحد كسابق عهدنا. هل تتذكر البركان؟ كان حان وقت الخروج وكانت تلك خاتمة الحديث. نهض وغسل فنجانه في المغسل. إنها المرة الأولى التي يفعل ذلك. بلله الماء فجفف يديه وهو يبتسم لي.

٧٧

كانت ثقة كبيرة تلك التي منحني إياها. لقد تكلم معي بمنتهى الجدية وقد صبر على التكلم بإيطالية كان تعلمها في الفترة الأخيرة. هي بالنسبة له لغة يوم الأحد وحسب. وحين يتعذز عليه العثور على كلمة يحمر وجهه وهو يبذل الجهد في البحث عنها فإذا ما نطقت بها يصيح في الحال: برافو، برافو، ويروح يكرر الكلمة حتى ولو لم تكن تلك التي يريدها. نعم. أتذكر البركان يوم الأحد. أنت تتذكره إذن، لم تنسه؟ لا. لم أنسه. هو يرغب في تسلق جبل فيزوف البركاني في يوم الأحد من فصل الشتاء حيث يكون الثلج غطى قمته. هل تذكر الثلج؟ يسالني من وقت لآخر فأهز رأسي إيجاباً وفي الحال ينهض أمام عيني، اللتين تحدقان في العتمة خارج البيت، مشهد الثلج عام ١٩٥٦، ثلج الشمال الناعم،

Twitter: @ketab_n

الصامت. نتذكر ذلك على الدوام ونتحدث عنه وهو يردد كل شتاء: هذه السنة سيتساقط الثلج حتى مشارف البحر. وهو بذلك يكشف عن رغبته في رؤية الثلج. سيغدو الميناء نظيفاً. لن تكون ثمة أوساخ وزيوت وصدأ. سيخيم الصمت على المدينة. حتى الترام سينسى أنه مصنوع من الحديد وسيعبر بهدوء كما لو كان باصاً كهربائياً. حتى الحدائق المليئة بالأوساخ ستبدو نظيفة وستظهر أشجار الحور أمام دار البلدية وكأنها ترتدي قبعات بيضاً. أفكر بحال العميان الذين يجهلون ما هو اللون الأبيض.

٧٨

خرج والدي من البيت وهو يحمل علبة تحت إبطه تحوي الملابس الداخلية لأمي. أطفأت المصباح. أنا وحيد في البيت. الجو بارد. أقبض على البومرانغ وأشعر بالدفء. طبعاً يا أبي أتذكر البركان في بوزولي. لقد أخذتني يوم الأحد ولم ترافقنا والدتي التي لا تتحمل الروائح القوية. هي لا تستعمل العطورالبتة. استقلّينا الترام حتى نابولي ومن هناك مشينا سيراً على الأقدام. كان المطر يتساقط رذاذاً وكانت قطرات صغيرة مثل رأس الدبوس تداعب البحر الهادئ على الشاطئ الذي كانت طبقة من القطران قد غطت صفحته. كنت أسير إلى جانبك تحت المظلة وأحث الخطى فلا أنتبه للماء الذي كان يبلل قدمي. خارج البوابة كان الهواء معبأً برائحة الكبريت.

Twitter: @ketab_n

دخلنا، يا أبي، فبدأت بقراءة لائحة الإرشادات حيث عرفت أن «المكان هو منبع بركاني». وبدلاً من أن تقول منبع قلت مبهج ولكنني لم أصحح الخطأ. حين ينطفئ بركان ما فإنه يلفظ نفسه الساخن الأخير مرفقاً بملح الكبريت الأخضر. عينا رافانييلو من اللون نفسه. نصل إلى سفح البركان الذي يقع وسط سهل فسيح. من قمة الجبل يخرج دخان هادئ. ثمة بئر من الطين تطفح بفقاعات كبيرة. يغلق والدي المظلة. بخار الكبريت يوقف المطر من السقوط، يجففه في الهواء. لاصوت سوى ذلك الذي تخلفه خطواتنا على الأرض. أشعر بالوحشة إذ أجد نفسي بعيداً عن جلبة المدينة من حولي.

٧٩

أجد فراشة سوداء. أقرأ كلمات مكتوبة على الأعمدة المنصوبة بالقرب من سفح البركان: الغار، الآس، الريحان. في زاوية رطبة أخلع حذائي وأجفف جواربي. الأرض حارة وأشعر بالدفء يصعد إلى ظهري. أشم رائحة حريق تنهض من بنطالي من الخلف. أدرك متأخراً أن البنطال عند المؤخرة قد تحمص. يضحك والدي، ثم يفكر بأمي التي يترتب عليها أن تصلح البنطال ويصمت. ندخل إلى نطاق دائرة البركان. ألتقط أحجاراً خضراً تصلح للكتابة مثل الطباشير الذي في المدرسة. أظن أنني لا أزال أحتفظ بها حتى الآن. إذا وجدتها سأحملها إلى رافانييلو كي أرى الشبه بين لونها ولون عينيه.

Twitter: @ketab_n

في طريق العودة يشتري والدي قطعة من لسان العجل المطبوخ. أمي تحب ذلك. بهذه الطريقة سنرضي خاطرها بشأن البنطال. ثم نصعد إلى جبل الرّب حيث نمر ببعض طلبة الكلية العسكرية وهم يرتدون بذلات مرصعة بأزرار مذهبة وتتدلى من أحزمتهم سيوف بمقابض بيض. كانت بذلاتهم تتألق وسط الألبسة البالية للناس الذين أخذوا يحيطون بهم من كل جانب. إنهم فتيان صغار لا تتجاوز أعمارهم عمري إلا قليلاً. يسيرون بقامات منتصبة دون أن ينظروا في وجوه الناس. لا بد أنه أمر صعب أن ينفصلوا عن الناس بهذه الطريقة. في البيت لا تقول أمي شيئاً عن البنطال ولسان العجل. لا شكوى ولا شكر. لقد تعادلنا.

٨٠

وجه رافانييلو ممتقع. هو لم ينم الليلة. لقد إخترق الجناحان الحدبة. كما يحدث للبيضة. من دون دم. بات الجاكيت أكثر إنتفاخاً من ذي قبل. قال إنه فتحهما. إنهما أكبر من جناحي اللقلق. لقد قرر أن ينتظر حتى ليلة الألعاب النارية كي يطير. وفي هذه الأثناء سوف يتدرب في غرفته. في إحدى المرات خاف من أصوات الألعاب النارية في نابولي. لقد ذكره ذلك بضجيج الحرب. هذه المرة ستكون طلقات السلام. أقول له أنني أنا ايضاُ قررت أن أطلق البومرانغ في تلك الليلة. فللبومرانغ أيضاً جناحان.كم بقي لذلك؟ يسأل.

Twitter: @ketab_n

إسبوعان. أخرج من جيبي أحجار الكبريت. إنها من لون عينيك. أقول له. يحملها بيده ويقربها من الضوء. الكبريت نار. لقد هطل من السماء كبريت ونار في سدوم وعامورة.

عينان خضراوان. شعر أحمر. لقد شاء الرب أن أبدو مثل قطعة من النار. يسألني عما إذا كانت عيناه خضراوين إلى هذا الحد فعلاً. بل أكثر. أقول. هما تحتفظان ببريق الدمع أما الكبريت فلا. رافانييلو يريد الإنتهاء من كومة الأحذية التي أمامه. سيأتي أصحابها لكي يأخذوها. الآن سيكون بوسع أهالي نابولي أن يسيروا وهم ينتعلون أحذية سليمة.

٨١

أساعد المعلم أريكو في تكشيط خشب الزان الذي تفوح منه رائحة الصمغ الحارق. ينظر المعلم أريكو إلى الخشب ويهز رأسه. لا يمكن تكشيطه بالآلة. لا بد أن نقوم بذلك يدوياً. يريني لطخات الصمغ ويقول أنها جفت وأصبحت صلبة ويمكن لها أن تكسر نصل الكاشطة الآلية. إن صمغ الزان حين يجف يصبح مثل الحجر. هكذا أتعلم تكشيط الخشب يدوياً على طريقة المعلم أريكو. تبدو قطع الخشب مثل ضفائر شقر وأشعر كما لو أنني حلاق أقص شعر الخشب. في الظهيرة أعثر على ريشة تحت طاولة رافانييلو. أحملها، إنها خفيفة، أكاد لا أحس بها في يدي. يا دون رافانيي، سأحتفظ بها كذكرى منك. جميل أنك تقول

Twitter: @ketab_n

سأحتفظ بها بدلاً من سآخذها. فعل أخذ ينطوي على قدر من الإدعاء الجازم بينما يحمل من يقول «أحتفظ» الأمر على محمل الشك فاليوم يحتفظ وغداً من يدري إن كان سيستمر في ذلك أم لا. سأحتفظ بها على سبيل الذكرى. أفكر بالبومرانغ. إني أحتفظ به بقوة ولكن يترتب علي التخلي عنه في نهاية الأمر. أخرجه من تحت سترة العمل. أنظر يا دون رافاني، إنه مصنوع من أجل أن يطير هو أيضاً. نمضغ الخبز مع الجبن وننظر إلى البومرانغ. يتوقف عن الأكل. يسألني بشكل جدي عن الخشب الذي صنع منه البومرانغ. إنه مصنوع من خشب الأكاسيا يا دون رافاني. تطلع منه شهقة. إنه خشب قاس. يسعل سعالاً قوياً ويبصق الجبن ثم يهدأ ويهز جسمه على الكرسي إلى الأمام والخلف ويكرر: أكاسيا، أكاسيا. وتطفر من عينيه الدموع ويحمر وجهه ليصير مثل شعره ويسمع صوت طقطقة العظام في ظهره.

٨٢

أتوقف عن الكتابة على اللفافة إذ أحتار في إختيار الصيغة المناسبة: «طفرت الدموع من عينيه» أم «ذرف الدموع». على أي حال كانت ثمة فوضى في الظهيرة ولم أستطع أن أفهم شيئاً كما أنني لم أستطع القيام بعمل أي شيء. بقيت إلى جانبه وقد توقفت عن الأكل. لم أنظر إليه. أنتظرت. بعد قليل تحول السعال إلى ضحك. ضحك بصوت أعلى مما فعل

Twitter: @ketab_n

حين بكى ونزلت دموعه. ضحك وضحكت بدوري وفكرت فيما لو دخل المعلم أريكو علينا ورآنا على هذه الحالة فإنه سيفرغ على رأسينا وعاء من الماء كي نتوقف. توقف رافانييلو. شعرت بالسعادة لهذه الضحكة التي أيقظت شهيتي وجعلتني أنهي الخبز والجبن في أربع مضغات. أعدت البومرانغ إلى مكانه تحت السترة إلى جانب الريشة التي كانت سقطت من جناح رافانييلو.

٨٣

على مصطبة الغسيل تهب ريح كانون. تكنس الأوساخ عن الأرض، تصفي السماء، وتطرد الدفء من البيوت. البومرانغ يثور، يشق الهواء الذي يحمله عالياً. وتعجز ذراعاي عن التحكم به. لقد صار مثل جناح من الريش. أسدد الرمية مئتي مرة بكل ذراع ولا أتعب. أنا رام وعليّ أن أصبر. ليس ثمة قمر. ماريا تنظر مذهولة إلى السماء فوق جبل الرّب. أنا مشغول بالبحر وأنظر مشدوهاً إلى تلك النقاط المضيئة على صفحته. معتبراً إياها رهطاً من السمك المضيء وأحاول أن أقلد بصوتي المبحوح صوت بائع السمك حين يمر بالحارة وهو يضع سلة السمك على رأسه والميزان على كتفه ويصيح: تعالوا إلى خبز السماء. أسكت، إنك تذكرني برائحة السمك. تقول ماريا التي لا تتحمل رائحة السمك وتفضل أن تبقى الأسماك في البحر. نحرس الحارة ونحن

Twitter: @ketab_n

نقف على أعلى مصطبة فيها. نجلس متلاصقين، مسندين ظهرينا إلى الجدار وقد تدثرنا ببطانية مصنوعة من الصوف وندع الزمن يسير برفقة الريح التي تجري بين مساند الثياب الفارغة وهوائيات التلفزيون. تصفر الريح وتحوم حولنا بعد أن وجدنا المكان الذي نختبئ فيه. يدفعنا ذلك لأن نلتصق ببعض أكثر وأكثر.

٨٤

تجرني ماريا إلى حضنها. تضع رأسها على عنقي. نتحدث همساً. تقول: أنت تكبر يوماً بعد يوم وأنا أتشبث بك كي أكبر أنا أيضاً بسرعة. بالأمس فقط لم تكن هذه العضلة موجودة في صدرك. بالأمس فقط لم تكن مناسباً إلى هذه الحد. لا أكاد أتذكر يوم أمس. ها قد أوشك هذا اليوم نفسه على الإنقضاء. لقد تكشط مع الضفائر الشقر لخشب الزان ومع تشكل الألواح في الأيدي. ومع صوت المنشار وهو يقضم ميليمترات من الخشب. في آخر النهار فحسب تجد يدي مكانها حول مقبض البومرانغ وعلى كتف ماريا. أمس هو ذلك القسم من لفافة الورق الذي كتبت عليه وطويته. ماريا، أسألها، هل هذا هو الحب الذي يتحدثون عنه في الأغاني؟ لا. ذاك حب كئيب. قطعة من الآهات والدموع. كم هو ممل. أما حبنا فهو إتحاد، إنه قوة للكفاح. تتبعثر ثرثراتنا مع الريح التي تلتقطها من فاهينا.

Twitter: @ketab_n

في العتمة نلمح هيئة شخص على المصطبة. يترنح مع الريح وينادي: ماريا، ماريا. إنه صاحب البيت. تلتصق ماريا بي ولا ترد. أرمي البطانية جانباً، أستمد القوة من البومرانغ الذي تحت إبطي. أمسك بالعجوز من صدره وأدفعه إلى الخلف فيما يصرخ دون توقف: ماريا، ماريا، ويحاول أن يدفعني كما كان يدفع الريح. يتقدم إلى الأمام كما لو أنه لا يبصر شيئاً وينادي على ماريا ويصطدم بيدي من جديد. أمسك به وأدفعه إلى الخلف ثانية دون أن أقول شيئاً. أدفعه إلى الخلف فقط مستعيناً بالقوة التي بزغت فيّ فجأة يساعدني في ذلك البومرانغ. الريح بدورها تحيط بي وتدفعني بإتجاهه. أدفعه إلى الخلف بدفقة من العزم. هو يحاول أن يخطو إلى الأمام ولكنه يصطدم بي حيث أحني جسمي ليصبح مثل قوس البومرانغ. لا أنظر إلى وجهه، أركز فقط على صدره. وبدفعة أخيرة أعيده إلى باب الدرج الذي ينفتح خلفه وحينئذ يفهم ألا فائدة ثم ينحني ولا أعرف إن كان ذلك بسبب الألم الذي سببته له بدفعي إياه على صدره أم بسبب ماريا. ينحني ويبدأ في النزول وهو يبكي. أرى رجلاً عجوزاً مهزوماً، جسداً وروحاً، ومع ذلك لا أشعر بالشفقة تجاهه. أعود إلى ماريا التي تنهض وتحتضنني بيديها اللتين جمدهما البرد وتضع على فمي قبلة عميقة، حيث تلتقي أسناننا، ثم تهدأ.

Twitter: @ketab_n

٨٦

لقد إنهزم العجوز. أصابته اللعنة التي تصيب الكلب الذي يلحس المبرد. لقد رأيته يبكي، ياماريا. أنا أيضاً سبق لي أن رأيته يبكي، على فخذي. نحمل البطانية، نترك العلية ونغلق الباب من خلفنا. تقول ماريا: لقد طردته للابد. يتردد صوتها بقوة في الممر الدرجي المغلق. في ليلة عيد الميلاد، تقول، سنكون عندك في البيت وسنحتفل وحدنا من دون الكبار. كلانا وحسب. حسناً، أقول، بالفلوس التي يدفعها لي المعلم أريكو سأشتري ديكاً مشوياً وبطاطا. أنا سأصنع البسكويت وسأرتدي أجمل فستان سهرة عندي. تفتح الباب بالمفتاح. أنا أنزل الدرج وأمر من أمام باب صاحب البيت. مازالت يداي تحرقانني. أكتشف أن أحد أزرار سترته قد علق بطرف ياقتي. أنزعه وأضعه على الأرض أمام باب بيته.

٨٧

يعد المعلم أريكو النقود ويسلمني إياها. إنه راتبي الأسبوعي. وفي الوقت نفسه يسألني عما إذا كان وضع أمي قد تحسن وما إذا كانت ستأتي إلى البيت في عيد الميلاد. أهز رأسي بالنفي. إذن لن يكون ثمة ديك رومي هذه السنة؟ لا يا معلم أريكو. إنه صعب، فهو يفلت حتى بعد قطع رأسه. سأشتري ديكاً. أسأله إن كان سيذهب إلى صيد السمك غداً. آه، الطقس هو الذي يقرر. رافانييلو يخبرني ألا أسأل

Twitter: @ketab_n

صياداً عما إذا كان سيذهب إلى الصيد. هم حريصون على التكتم على هذا الأمر. التكلم في الموضوع يجلب النحس. يتحدثون بعد أن ينتهوا من الصيد. رافانييلو يتكلم اللهجة النابولية. يقول إنها تشبه لغته الأم. اللغة الإيطالية بالنسبة لي هي مثل ثوب. بذلة على جسد اللهجة. اللغة الإيطالية هي لغة من دون لعاب أما النابولية فهي تحتفظ باللعاب في فمها ولهذا تجر الكلمات بسهولة. اللعاب لا يفيد في لصق نعل الحذاء ولكنه يعتبر صمغاً جيداً للهجة. يقولون الشيء نفسه في لغتي الأم: لصق باللعاب. أطلب منه أن يعيد ما قاله كي أكتبه في لفافة أوراقي. أسأله عما سيفعله في ليلة رأس السنة. لا شيء. فهو ليس مسيحياً. أدعوه إلى بيتنا. يشكرني وهو يبتسم فتجتمع التجاعيد على وجهه من حول عينيه الخضراوين. تأتيه الإبتسامة عرفاناً للدعوة ولكي تساعده على أن يقول لا.

٨٨

أغلق المحل في آخر لحظة، قبل إغلاق المحلات الأخرى بقليل. أذهب لشراء الديك من محل بيع اللحوم والبطاطا من محل الخضراوات. كل أهالي نابولي يجوبون الشوارع. تقول الغسالة التي تطل برأسها من نافذة بيتها في القبو. لقد أخذت ملابس الغسيل المنشورة إلى الداخل، فقد كان الناس يصطدمون بها ويوسخونها. نحن كثيرون، كثيرون

Twitter: @ketab_n

للغاية. يقول معلم الموسيقا دي روغايتس وهو يقف خارج محل بيع السمك بإنتظار أن يحصل على حنكليس حي. أنا الذي أختار لا أنت، تصرخ إمرأة، محتجة على بائع السمك. كلها جيدة ياسيدتي، لا فرق بين سمكة وأخرى. يقول بائع السمك مستعجلاً وهو يمسك برأس سمكة تتقافز بين يديه. عبرت سيارة تقودها سيدة وأخذت معها دون غايتانو الخياط الذي كان يرتق بنطالاً وهو جالس على كرسيه على الرصيف تحت ضوء مصباح الشارع وذلك من أجل أن يوفر الكهرباء. أخذته السيدة معها وهو يحمل كرسيه على ظهره ويتدحرج في الشارع. فجأة علت الصيحات، لقد أغمي على السيدة وهرع الجميع لمساعدتها فيما أخذ دون غايتانو يتخبط مذهولاً. لم يستوعب ما كان يجري وراح يهتف: ماذا جرى، ماذا حدث؟

وسط هذا الحشد لا يشعر المرء بالبرد. إنه أفضل من معطف ثقيل. عند البوابة ألتقي بالسيدة سبيرانزا، البوابة، التي تبادر بإلقاء التحية: عيد ميلاد سعيد ياولدي. عيد ميلاد سعيد لك أيضاً ياسيدة سبيرانزا. أرد عليها وأريها الديك الذي أشتريته.

٨٩

أدخل إلى البيت. ثمة برد صارم وأخرس يدفع المرء للذهاب إلى النوم فوراً. أرش الملح والبهارات على الديك وأضعه في الفرن مع البطاطا وأرفع درجة الحرارة. في

Twitter: @ketab_n

المطبخ أسمع صوت المذياع من البيت الذي يقع مقابل بيتنا. في شارع سانتا ماريا ديلا نيفي خرجت شحاذة عجوز إلى الطريق ورمت بكل النقود التي كانت جمعتها على الأرض فإلتم الناس من حولها حتى تدخل البوليس. سال الدم مرة ثانية من القديسة أندريا أفيلينو. بعيداً من نابولي، في أميركا، إختاروا رئيساً في مقتبل العمر. أرسل الروس كلباً إلى الفضاء فرد الأميركيون بأن أرسلوا قرداً. أطفئ الضوء وأنظر إلى الخارج. إنه عيد الميلاد. البيوت مضاءة والعائلات تجتمع حول الموائد. على طاولتي أفسحت المكان للبومرانغ والديك وماريا والبسكويت. في العام الماضي لم يكن في مقدوري أن أحلم بكل هذا. لقد حدث الأمر من تلقاء نفسه. خارج رغبتي. لقد كبر الجسد، فم ماريا، جناحا رافانييلو. حصلت أشياء كثيرة من تلقاء نفسها ولا علاقة بعيد الميلاد بها. الضوء مطفأ. ثمة أرواح تداعب عنقي. في العتمة تتحرك الأرواح بيسر أكبر. أستفيد من ضوء مصباح الشارع كي أكتب مستنداً إلى حافة النافذة. صرير القلم على الورقة يلخص جلبة النهار.

٩٠

حين أسمع طرقاً على الباب أضع اللفافة جانباً وأشعل الضوء. دفعة واحدة يدخل فستانها الأحمر وعطرها والدفء الذي يسيح من البسكويت الذي صنعته للتو. سنمارس الحب هذا المساء. تقول. لقد طبخت الديك، أقول. مع البطاطا

Twitter: @ketab_n

الطازجة. تحرك أنفها ناحية المطبخ وتجري أمامي في ذلك الإتجاه. الغرفة مظلمة. تلفني ماريا من الخلف وتشدني إليها دون أن تدع لي مجالاً للحركة. تقبلني في عنقي فيدغدغني ذلك ولكنني أكظم ضحكتي. ثم تقبل رقبتي، فيتحرك شيء في أعماقي، وتصعد إلى أنفي رائحة عطرها،عطر عيد الميلاد، أسرع من رائحة الديك المشوي في الفرن. يتجمع اللعاب في فمي. أشعر بالخجل من ذلك إذ في حين تنهمك هي بزرع القبلات على كل أنحاء جسمي أقف لابلع ريقي مع أنني لا أشعر بالجوع. فلماذا يتجمع اللعاب في فمي؟ تمسك ماريا بي من الخلف وتداعب جسدي من الأمام. تنتقل من وجهي إلى رقبتي فصدري ثم تنزل إلى تلك النقطة التي لا أجرؤ على النظر إليها. تفجر كل قوتها على جسدي. تضع يديها الناعمتين على الأماكن التي تصلبت عضلاتها فتستجيب العضلات وترتخي.

٩١

تقول: تمالك. وتحتضنني من الخلف بقوة وتمرر وجهها على ظهري ثم تديرني وتدفعني إلى الجدار فأصطدم بقلاية معلقة هناك فتضحك ثم تدفعني من جديد. الآن أحضنها أنا أيضاً. شعرها الذي غسلته يسقط على وجهي. اقف تحت شلال رائع من الشعر الأسود الطليق. يداها تمسكان بوجهي الذي يتلقى قبلاتها اللاهثة التي تصل إلى فمي المفتوح على

Twitter: @ketab_n

وسعه. لا أعرف ماذا أفعل بيدي. أحاول أن أحررهما قليلاً ثم أضعهما على صدرها. ينهض نهداها ويحتكان بيدي. حينذاك أضمها وأداعبها فترتجف ونعمد من تلقائنا إلى خلع ملابسنا ونتمدد عاريين على بلاط المطبخ وأمد يدي لأطفئ الفرن كي لا يحترق الديك. ماريا تبادرني وأنا أتبعها. تضعني فوقها كما تشتهي وأكتشف فجأة أنني لا أعرف ماذا يحصل لقضيبي. لقد أخذته ووضعته بين فخذيها وأخذت تحركه جيئة وذهاباً دون أن أتمكن من اللحاق بها. أتبع حركاتها. ترفعني وتنزلني على شكل موجة بحرية. أفتح عيني فأراها وقد أغمضت عينها وهي راقدة تحتي. فمها مفتوح وشعرها الأسود تناثر حولها وأنا أحاول أن أحافظ على توازني وهو أمر يتطلب قوة. ياله من شيء رائع. أشعر بأن شيئاً ما يتجمع في نهاية جسمي. كأن البومرانغ إنطلق داخل قضيبي. تنطلق مني صيحة آه من شدة النشوة فيما تستمر هي في الحركة على ظهري وتشهق بأنفاس متلاحقة في أذني وأنجر بحركات ليست حركاتي.

٩٢

تهدأ ماريا رويداً رويداً. لا أعرف أن كنت أتعبتها أو اذيتها. أسالها: ماالذي فعلناه يا ماريا؟ فتجيبني: الحب. أهذا هو؟ أهذا هو ما علمتيننني إياه؟ لا. لم أعلمك شيئاً. لقد بدأت للتو. أما الباقي فسوف تفعله بنفسك. لا بد أن الحب

Twitter: @ketab_n

شيء غامض. يتحقق من تلقاء نفسه. أقول هذا لنفسي. على كل حال، لقد إستعدت قضيبي. لقد عاد إلى مكانه كما كان. آرو سي غيوتو؟ اين كنت إختفيت؟ أريد أن اساله بالنابولية ولكنني لا أفعل ذلك. لقد عوضتني عن كل المرات التي كانت تسبب لي القرف. تقول ماريا بصوت هادئ بعيداً عن تلك الشدة الراسخة في حنجرتها والتي تضفي على كلماتها صرامة وقسوة. يبدو أنها شعرت بالجوع فنهضنا عن الأرض وإرتدينا ملابسنا وأخذت هي تسوي شعرها من دون أن تشعل الضوء. المطبخ دافئ قليلاً بفعل الفرن ونحن مازلنا دافئين بفعل الحب. نتناول لحم الديك مع البطاطا جالسين جنباً إلى جنب. نأكل بأيدينا ونتدافع بالمرفقين ونتضاحك في العتمة التي يبددها قليلاً الضوء القادم من الشارع. الفوطة التي وضعناها على عنقينا تضايقنا. البومرانغ على الطاولة يجلس في رفقتنا. ماريا تضع حبات بطاطا في فمي فأتظاهر بأنني أختنق. ننظف قعر الصحن بالخبز.

٩٣

إنه لأمر رائع أن نكون لوحدنا. تقول ماريا وفمها ممتلئ. إعتدنا على العتمة فيكفينا ضوء خافت قادم من الخارج. وضعنا بطانية على أكتافنا وأخذنا نلتهم البسكويت المصنوع من اللوز. لقد صنعت ماريا مقداراً كبيراً من البسكويت ولكننا إلتهمناه كله ولم نترك شيئاً. في المرة القادمة سأصنع كعكة

Twitter: @ketab_n

الفواكه. تقول. في بيت مجاور تبدأ فرقة موسيقية بالغناء. لقد دعتها العائلة. يصل إلينا الصوت واضحاً للغاية. لا بد أن الصوت عندهم في البيت صاخب جداً لدرجة تجبرهم على سد آذانهم.نحن أيضاً فرقة موسيقية. أضع يدي على كتفها. نرفع البطانية إلى رأسينا ونحك شفاهنا معاً ونلحس بعضنا مثل القطط. بعد ذلك تنهض فأنهض معها ونروح نستلقي في سريري الصغير ونشبك ذراعينا معاً قبل أن ننام فإذا ما إستفاق احدنا قبل الآخر فإن الثاني سيستفيق رغماً عنه.

٩٤

كان دون شيشو، البواب، يتحدث مع أحد ساكني البناية. قال أن صاحب البيت أحدث جلبة كبيرة في الليل. بقي يطرق على باب بيت ماريا ساعة كاملة. إنزعج الجيران وتشاجروا معه. نحن في الطابق الأول لم نسمع شيئاً. رغم أنه عيد الميلاد فإنني أنزل وأفتح الدكان فقطع الأثاث المصبوغة حديثاً تنشف بشكل أفضل في الهواء الطلق. يصل رافانييلو من بعدي ويجلس على طاولته. جناحاه تملآن جاكيته. إنهما أكبر من حدبته. كيف تسعهما الحدبة؟ لا أحد يلاحظ ذلك. لا أحد يكترث بالأمر. المعلم أريكو الذي يعاين زاوية المحل لن يلاحظ شيئاً حتى ولو جاء رافانييلو يوماً من دون حدبة على الإطلاق. نحن لوحدنا في المحل. الطقس جميل ولا شك أن المعلم أريكو قد ذهب لصيد السمك. يسألني

Twitter: @ketab_n

رافانييلو عن البومرانغ. أخرجه من تحت قميصي وأناوله إياه. يتظاهر بأنه يداعبه ثم يطبع قبلة عليه. أرى ذلك ولكنني ألزم الصمت. لقد أصبح الخشب أخف وزناً، كذلك الأمر بالنسبة لرافانييلو.

٩٥

أنقل قطع الأثاث إلى خارج الدكان. السيدة أسونتا، الغسالة، تفتح باب القبو وتبدأ في فعل الشيء نفسه مع الملابس. تنشرها في الشمس حيث ستجف بسرعة. ألقي عليها تحية الصباح فتسألني مستغربة عن سبب فتح المحل في يوم عيد الميلاد. الأثاث بحاجة إلى تجفيف ياسيدة آسونتا، تماماً مثل الملابس. أجيب. كانت شاركت في قداس منتصف الليل. الدون فريتيلا ألقى كلمة قوية قال فيها أن الصواريخ التي تنطلق إلى الفضاء لن تصل إلى أي مكان. ستضيع في السماء. في حين أن النجمة كانت تقترب من الأرض لتعلن ميلاد «الصبي». وماذا نطلب من النجوم أكثر من ذلك؟ لقد تكلم بشكل رائع وبسرعة كما هي عادته،ولكن بشكل واضح. يجب عليك أنت أيضاً ان تشارك في القداس. ينبغي ألا تكبر لتصير شخصاً ضائعاً. الأجير الذي كان يعمل عند المعلم أريكو من قبل أن تأتي لم يكن يسمع كلمة الرب وهو الآن يقبع في السجن. تقول السيدة آسونتا ذلك وهي تلوح بيديها المتورمتين الحمراوين من أثر البرد، حيث تعلق

Twitter: @ketab_n

الملابس على الحبل الممتد في منتصف الشارع. أهز رأسي موافقاً فتبحث هي عن كلمات جديدة يمكن أن تفيدني ثم تبتعد. ألمس الخشب لطرد الأرواح الشريرة مردداً: شوشو، شوشو، وأضيف إلى ذلك كلمة كانانوري التي تعلمتها تواً.

٩٦

أتكلم مع رافانييلو. اليوم لدينا متسع من الوقت. هل تشتاق إلى وطنك؟ أسأله. وطنه لم يعد قائماً. لم يعد ثمة أثر للأحياء ولا حتى للأموات. لقد أبيدوا. لا أشتاق إليه بل أشعر بحضوره في أفكاري أو حين أغني. يقول.أو حين أصلح حذاءً، حينذاك أشعر بحضور وطني. كثيراً ما يأتي إلي، الآن بعد أن لم يعد له مكان محدد. يأتي من خلال صوت بائع الماء الذي يصعد بعربته إلى جبل الرّب كي يبيع الماء السلفوري في وعاء فخاري. في نداءاته تصلني بعض الكلمات من وطني. يصمت لحظة وهو يشد على المسامير التي بين شفتيه فيما رأسه ينحني على نعل أمامه. يلاحظ أنني إقتربت منه فيستمر: حين يدب الحنين في أوصالك فإن الأمرلا يتعلق بالغياب بل بالحضور. إنها زيارة يقوم بها أشخاص وأوطان يأتون من بعيد ويمكثون برفقتك برهة من الزمن. إذن، يادون رافانيي، حين يغلبني الشوق فإن ذلك هو حضور؟ بالضبط. عليك ان ترحب بكل من يحضر وتستقبلهم بحرارة. إذن حين تطير وتمضي بعيداً يجب ألا اشعر بغيابك؟

Twitter: @ketab_n

لا. حين يخطر لك أن تفكر بي سأكون حاضراً معك. أدون على لفافة الورق الكلمات التي أدلى بها رافانييلو بشأن الغياب بشكل مقلوب. هكذا أحسن. إنه يتعامل مع الأفكار مثلما يتعامل مع الأحذية: يقلبها رأساً على عقب ويصلحها.

٩٧

ذهب والدي إلى البيت كي يغير قميصه ورأى ماريا. قالت له أنها تجيء من وقت لآخر كي تساعدني وتنظف البيت فشكرها وأخذ ألبسة داخلية نظيفة لأمي وذهب. مرعلى المحل كي يسلم عليّ ولم يتفوه بشيء عن ماريا. كانت عيناه تعبتين من قلة النوم. لم أسأله شيئاً وهو لم يقل شيئاً. لقد توثقت العلاقة بينهما وبقيت خارج المعادلة. ولكن علاقتي أيضاً توثقت بماريا. تغيرت أشياء كثيرة وخاصة بالنسبة إلينا.

لم تتسرب الشيخوخة إلى وجه أحد بالسرعة التي فعلت مع وجه أبي. ليس هناك أحد ممن له حدبة تخفي جناحين. ليس ثمة جسد أكثر إستعداداً لإطلاق بومرانغ. وفي هذا الوقت بالذات كان على ماريا أن تتخلص من الرجل العجوز وأن تسلم نفسها ليدي اللتين تغلفهما نشارة الخشب على أعلى مصطبة في جبل الرّب. حين تقترب الشبكة من الساحل يخف وزنها وتتحرك بسرعة أكبر. هذا ما يحصل لنا. لفافة الورق أيضاً صارت تدور بسرعة بعد أن تخلصت من ثقل الجزء المكتوب.

Twitter: @ketab_n

أرافق رافانييلو إلى السطح حيث تقوم علاقة الغسيل. هو لايحسن تسلق الدرج بل يبدو وكأنه يقفز قفزاً. يستند إلى الدرابزين ويتطلع يميناً وشمالاً. يفتح عينيه على وسعهما فيظهر بياضهما الذي يحيط بالحدقتين الخضراوين. يحدد الإتجاه. قريباً سنفترق. أسأله عما يفكر به. إنه منتصف النهار في يوم عيد الميلاد. الناس في بيوتهم إلا نحن. السماء فوق البحر صافية. دون أن ينظر إلي يقول: هناك السماء وهنا الأرض. للإشارة إلى شيئين نقيضين. غير أنهما متقاربان هنا في هذه النقطة العالية. بالتأكيد يا دون رافانيي. من جبل الرّب تكفي خطوة واحدة للوصول إلى السماء. يتطلب الأمر خطوات كثيرة. قفزة كبيرة. عندما تحلم بأنك تطير تصير عديم الوزن. لا تحتاج إلى كامل طاقتك كي تحلق في الأعالي. ولكن حين يتهيأ الجناحان ويستعد الجسد للإنطلاق نحو السماء يتطلب الأمر قوة عنيفة للتحرر من الأرض. قفزة شبيهة بسكين يشق النعل دفعة واحدة. أنا إسكافي، صندلي، كما كانوا يسمونني في بلدي. أصلح الأحذية. أعتني بالأرجل. أعرف كيف يستند المرء على الأرض، كيف يحافظ على توازن الجسم كله. أعرف قيمة الكاحل ومرونة العقب وصلابة مشط القدم. أعرف متى يصير ممكناً القفز إلى الأعلى وإلى الأمام وإلى الجانب. أعرف آلام الأرجل والسعادة التي يشعر بها المرء حين يقف منتصباً على كل بقعة

Twitter: @ketab_n

كما لو كان على حبل مشدود. ذات مرة صنعت زوجين من الأحذية من جلد الغزال للاعب سيرك. هنا في نابولي تعلمت أن في مقدور الأقدام أن تبحر فصنعت أحذية للبحارة الذين يتعين عليهم أن يتكيفوا مع أمواج البحر. الأقدام هي التي قادتني إلى جبل الرّب. هي التي أنقذتني. يقولون عندنا أن الأرجل وليس الأسنان هي التي توفر طعام الذئاب. لدي حدبة تجرني إلى الأسفل فكيف لمخلوق أرضي مثلي أن ينطلق نحو السماء ويخفق بجناحيه تحت النجوم؟

٩٩

أدون كلماته لأنني سأكررها على الدوام ولا تسعفني الذاكرة في ذلك. أغلق عيني السليمة وبينما أسطر الكلمات بالقلم على لفافة الورق يأتيني صوت رافانييلو من جديد برفقة دبيب الأرواح. الأجنحة تناسب الملائكة ولكنها تكون ثقيلة للبشر. لكي يطير الإنسان يتعين عليه أن يصلي وحسب فالصلاة تتخطى الغيوم والأمطار. تجتاز سقوف البيوت وذرى الأشجار. الصلوات هي أجنحتنا للطيران. أنا كنت مقوس الظهر مثل مسمار منحنٍ، مشدودٍ إلى الأرض. إرادة خارقة تأتي وتنتشلني من الأرض وترفعني نحو الأعلى. الآن عندي جناحان ولكن لكي يطير المرء ينبغي عليه أن يولد من بيضة لا من رحم وأن يأتي إلى الدنيا على الأغصان وليس على الأرض. ينحني على الدرابزين، تبرز جناحاه من تحت

Twitter: @ketab_n

سترته. أندفع للإمساك به. يلمح ذلك فيستدير ويبتسم إبتسامة عريضة من دون أن يظهر ذلك في عينيه اللتين تشبهان عيني طائر، وهما ثابتتان في أعماق الوجه. تحت سترتي أحس بحرارة البومرانغ، أيتها الخشبة الحنون.

١٠٠

نسمع، ونحن ننزل على الدرجات، صوت الصحون وهي تتكسر في شقة صاحب البيت. يتوقف رافانييلو، ودون أن يعرف من الذي يسكن في الشقة يقول: الرجل ثمل من دمه. هل هي اللعنة يا دون رافانيي؟ يقول نعم. فيسير تيار بارد في ظهري. لقد كنت دفعته من على المصطبة وضربته بيدين مفتوحتين وذراعين مشدودتين. لقد طردته وهذا ما يجعل القشعريرة تسري في عمودي الفقري. أنزل الدرجات في أعقاب رافانييلو في حين يستمر تكسير الصحون. في البيت وضعت ماريا مريولاً على وسطها وأخذت تحضر المعكرونة مع البصل وتنتظر عودتي. عيناها مليئتان بالدمع وهي تضحك. البواب دون شيشو يطرق الباب فنطلب منه أن يدخل إلى المطبخ. يجلس معنا ويشرع في الكلام: عائلاتكما تتعاركان وأنتما تجلسان معاً هنا. مازلتما صغيرين ولكنكما تقومان بأمر جيد. يجب على المرء أن يهتم بنفسه، في نابولي يكبر المرء بسرعة.

Twitter: @ketab_n

دون شيشو يتكلم بهدوء. يداه معقودتان على الطاولة وعلى رأسه طاقة رغم أنه داخل البيت. أنا أعرفك ياماريا منذ كنت في المهد. أعرف كل ما جرى لك. ماريا تنظر إليه بثبات وهي تتنفس من أنفها كإشارة على الغضب. ماري، غداً لن يكون في بيتكم من يهتم بك بل بالعكس يخلق لك المتاعب فلن يكون في وسع أحد أن يساعدك. هذا ما جرى لي في بيتنا. حدث ذلك قبل الحرب. كان هناك القليل من الأكل. صعدت أختي الصغرى إلى تلك الشقة في ذلك البيت الكبير وجلبت لنا الخبز. لا تنظري إلي هكذا يا ماري. لا تغضبي مني إذا ما تحدثت عما يجري لك. الآن أنت مع هذا الولد. إنه صبي جيد، يعمل بجد ويحترم الكبار ويعقد صداقة مع الإسكافي الأجنبي رافانييلو الذي له حدبة على ظهره. إنه لأمر حسن أنكما تلتقيان ولكن يجب أن تتصرفا بشكل صحيح. لا تستعجلا. لا تستطيعان أن تتزوجان حتى وإن عشتما معاً في بيت واحد. يمكن أن تصبحان خطيبين. يجب أن تكشفا عن نواياكما وإلا ستسببان فضيحة وسيتعين على أهلكما أن يتدخلوا. إذا كانوا غافلين عنكما الآن فإنهم سينتبهون إليكما حين تصبحان على كل شفة ولسان. أقول لكما هذا لأنني أريد لكما الخير والتوفيق. ماري، أنا سعيد لأنك توقفت عن النزول إلى تلك الشقة. يقول دون شيشو الجملة الأخيرة بصوت متكسر ويحمر وجهه.

Twitter: @ketab_n

١٠٢

في الربيع كنت بعد طفلاً صغيراً والآن ها أنذا أخوض في المسائل الجدية التي لا أفقه أكثرها. دون شيشو على حق حين يقول أن على المرء أن يكبر هنا بسرعة. وأنا أفعل ذلك فها أنا أكبر ركضاً. رافانييلو، ماريا، البومرانغ، أنا أجري خلفهم. ولفافة الورق التي أكتب عليها توشك على الإنتهاء ولكنني لن أذهب إلى دون ليبريو لأسأله إن كان عنده واحدة زائدة أخرى. تجلس ماريا مقابل دون شيشو ولا تتفوه بشيء. الحساء يغلي في الوعاء على نار هادئة. تلتقط يدي من تحت الطاولة وتضعها على الطاولة في يدها. أنظر إليها وهي تنظر إلى دون شيشو. الآن قل لي يادون شيشو. تبدأ ماريا بالإيطالية ثم تنتقل فجأة إلى النابولية التي تخرج من بين شفتيها مثل صفعة. وإذ تمضي في التحدث تصبح الكلمات حادة مثل سكين. يبلع دون شيشو ريقه صامتاً. ترجع ماريا إلى الإيطالية الهادئة وتقول: هل ستتناول الغداء معنا يا دون شيشو؟ قليلاً من السباغيتي. ينهض دون شيشو وهو يشكرها. يجب أن أعود إلى البيت. عليكما أن تتصرفان بحذر. لقد حدثتكما كأب، مع أن لا أحد يفعل ذلك هنا. تلتفت ماريا إلى وعاء الحساء. أرافق دون شيشو إلى الباب. أمد له يدي وأشكره على إهتمامه بنا. الحذر، ياولدي، الحذر. يقول ذلك ويعدل طاقيته على رأسه ويشرع بالنزول على الدرج.

Twitter: @ketab_n

١٠٣

في المطبخ تقول ماريا ألا أحد له الحق في أن يتدخل بيننا. أخبرها عن تكسير الصحون. يبدو ان لديه الكثير منها. الأرجح أنه جن. الناس يتخلصون من أشيائهم القديمة في رأس السنة. هو يسبق الجميع على ما يبدو. أليس هو صاحب البيت. إنه صاحب البناية كلها. كم يكلفه عدد من الصحون. تصب الحساء مع المعكرونة. نأكل جالسين جنباً إلى جنب. أقدامنا تتلامس. أدرك الآن أنها على صواب. لا أحد له الحق في أن يتدخل بيننا.

١٠٤

في المحل يفرغ رافانييلو من آخر زوج من الأحذية. لا يتوقف عن الحركة وهو جالس إلى طاولة الأحذية. يرفع رأسه، يديره في أرجاء المحل. عيناه في حالة تأهب. إنه يشبه طائراً تخلف عن السرب الذي رحل. هذا آخر يوم له في المحل. في الليلة الأخيرة من السنة سنلتقي في غرفة الغسيل في الأعلى. هكذا إتفقنا. يسألني عن البومرانغ. إنه معي دائماً يا دون رافانيي. جاهز للإنطلاق. يدير عنقه فجأة ناحية الباب. ألتفت فأرى المعلم أريكو وهو يدخل. مرحبا. هذا الصباح إصطدت سمكة كبيرة أمام سانت لوشيا. لم تكن الشمس أشرقت بعد. إصطدتها بالخيط. إصطادتني هي أيضاً. لقد ضربتني بقوة فجرحت يدي. ويرينا الخط الأحمر من أثر

Twitter: @ketab_n

الجرح. أرخيت الحبل قليلاً كي لا أفقد الطعم، الذي كان دوداً صغيراً، وتركتها تدور حول نفسها حتى تعبت ثم بدأت أسحبها بحذر حتى باتت بمحاذاة القارب فرفعتها بدفعة واحدة. ثلاثة كيلوغرامات ياولد. كانت الشمس طلعت تواً وكانت أشعتها الأولى تنتشر على البحر وكانت السمكة أكثر لمعاناً في ضوء الفجر. سآكل السمكة خلال أسبوع كامل. سأترك الحنكليس إلى السنة المقبلة. هذا الصباح سأطبخ الرأس. رأسها كبير إلى هذا الحد. ومد يديه ليرينا حجم الرأس. بين اليدين ترك فراغاً بحجم كرة القدم.

١٠٥

أهنئه. أنت فريد من نوعك يامعلم أريكو. سواء في نجارة الأثاث أو في صيد السمك. يسره أنني أدعوه نجار أثاث ولكنه لا يأخذ الأمر بشكل جدي. أنا مجرد نجار عادي يحب صيد السمك. لا شيء فريد في هذا. هل تحب أن تسمع شيئاً فريداً؟ بابيلو البحار، الذي يصطاد السمك صباحاً ثم يروح يدور بين البيوت ليبيعها، أثناء الحرب خرج إلى البحر ليصطاد السمك ولكنه عاد وهو يحمل دجاجة. نعم. لقد إصطاد دجاجة. هل غيرت المهنة؟ سأله الناس. لا، ايها السادة، ولكن ما حدث هو أن الأميركيين قد اصدروا أمراً بمنع الصيد في خليج نابولي لأن الألمان زرعوه بالقنابل. ولكن بابيلو إنطلق بقاربه رغم ذلك وأخذ يسير وراء السفينة

Twitter: @ketab_n

الحربية الأميركية. أخذ الأميركيون يرمونه بالدجاجات المجمدة كي يبتعد عنهم ويعود أدراجه. هكذا عاد بابيلو يحمل دجاجة وصار الناس يدعونه صياد الدجاج بدلاً من صياد السمك.

١٠٦

المعلم أريكو سعيد للغاية حتى أنه كاد ينسى إلقاء التحية على رافانييلو. يقول أنه سيرسل شريحة من سمك الريشولا كي يتذوقها رافانييلو. يفحص الخزانة ليتأكد من أنها قد جفت. كل شيء على مايرام. نستطيع أن نشرع في تثبيت المقابض والزوايا والعلاقات وثقوب المفاتيح. يقوم المعلم أريكو بتشغيل المثقب لتهيئة الثقوب للمفاتيح، أما أنا فأعمد إلى تقريب درفات الخشب من المثقب. أفتح عيني السليمة على وسعها وأغمض عيني الأخرى نصف إغماضة كي أريحها. سوف نسلم الخزانة بعد رأس السنة. بينما نحن غارقون في العمل أسأله عن دون شيشو وما إذا كان رجلاً طيباً أم لا. إنه رجل محترم وشجاع. في فترة الحرب كان في مقتبل عمره وكان يساعد المقاومة بشكل سري. كان يقدم الخدمات للمقاومين أثناء القصف حين لم يكن أحد يجرؤ على الخروج إلى الشارع. لم أشاهده قط وهو ينزل إلى الملجأ. أسأله عما إذا كان يتذكر أخت دون شيشو. ماذا تعرف عنها أنت ياولد؟ ماذا تعرف عن أخت دون شيشو؟

Twitter: @ketab_n

أعرف القليل يا معلم أريكو. أعرف فقط ما أخبرني هو عنها. أنها كانت تعمل كخادمة. لقد عملت خادمة عند صاحب البناية الذي كان متزوجاً ولكن يده كانت طويلة. كانت مجرد فتاة صغيرة، فتاة حلوة صغيرة يا ولدي. يشعل سيجاراً صغيراً، وهذا يعني أنه لا يريد قول المزيد.

١٠٧

مساءً أغلق باب المحل وأرافق رافانييلو إلى بيته. أسنده من ذراعه لأنه لا يقوى على المشي. دون رافانيي، لقد قطعنا الزمن بسرعة كبيرة في الشهور الأخيرة. أنت بحدبتك وأنا بعملي. لقد كبرت جسدياً وصار صوتي خشناً. إلى أين نمضي مسرعين، كلانا؟ أسأله ويجيبني بصوته الهادئ: هناك طرفة كان يرددها الناس عندنا هناك. كان ثمة رجل يركب حصاناً ويعدو به بسرعة كبيرة وهو لا يعرف قيادة الأحصنة. يمر بقرية فيسأله أحدهم إلى أين يمضي بهذه السرعة. يصرخ الرجل بأعلى صوته: إسأل الحصان. أضحك رغم أنني لم أستوعب معنى الطرفة. رافانييلو خفيف. إنه خفيف لدرجة أستطيع أن أحمله وأرفعه في الهواء. لا بد أن عظامه فارغة. ثمة هواء تحت سترته. أرى كيس الجناحين المخفيين. أمرر يدي كي أغطيهما بشكل أفضل. في نابولي يعتبر الناس الحدبة فأل خير ويمررون أيديهم عليها كي تجلب لهم الحظ.

Twitter: @ketab_n

كم مرة مرر الناس أيديهم على حدبتك دون أن يستأذنوك في ذلك؟ إنه يتساهل معهم. في بلدي كانوا يسمونني الأحدب ولم يكن أحد يقترب مني. أما هنا فإن إهتمام الناس بالحدبة تفرحني. لا أظن أنني جلبت الحظ لأحد. ولكن المداعبات مفيدة لي. إنها تحيي جناحي.

١٠٨

آه يادون رافانيي.أنا أحتاج لمن يداعب رقبتي كي ينتعش صوتي. لقد مات صوتي القديم والصوت الجديد لم يستقر بعد. يبتسم. يقول أن صوتي سيطلع دفعة واحدة وسيكون قوياً. يقول: في أحد الأيام بينما كنت في إيطاليا بعد الحرب رحت أتجول في القرى، وفجأة سمعت صرخة رهيبة من خلفي. كان نحيباً مؤلماً، إستغاثة حارة، وكان الصوت حاداً لدرجة أنني شعرت بالدم ينزل من أذني. وضعت حملي على الأرض وإستدرت ورأيت لأول مرة في حياتي حماراً وهو يجر عربة فيما رجل ينهال عليه بالضرب بعصاه. كان الحمار يمد عنقه طويلاً إلى الأمام ويرفع عقيرته بكل حباله الصوتية المشدودة ويطلق صرخته بأقصى طاقته للإحتجاج على الظلم الذي يقاسيه. آه لو كان في وسعي أن أتلو صلاتي على هذا النحو. في الكتاب المقدس يرد ذكر الحمار كثيراً. إنه حيوان مطيع ومفيد. ولكن صرخته عقيمة لاطائل من ورائها. إنها صرخة جبارة بينه وبين الله لاشأن للبشر بها. كان ذلك في شهر أيار وكانت أذني تطن

Twitter: @ketab_n

بأصوات الحرب المخيفة. طلعت أصوات كثيرة من أماكن مختلفة في الجوار رداً على نهيق الحمار وشعرت برعشة تسري داخل حدبتي وفجأة إنهمرت الدموع من عيني. طوال الحرب لم تدمع عيناي ولكن على طريق في الريف الإيطالي إنتابتني رغبة في البكاء بسبب إستغاثة حمار. حين يستقر صوتك سوف يكون قوياً كصوت الحمار. أشكرك يا دون رافانيي، هذا لطف منك. أبدو الآن مثل متآمر بصوتي الخفيف. هل تعلم يا دون رافانيي بأن فريق كرة القدم في نابولي يحمل صورة الحمار على رايته؟ ربما لأن جمهوره يهدر بصوت قوي مثل صوت الحمار حين يتم تسجيل هدف. كنت ماراً بالقرب من الملعب ذات مرة وسمعت هتافات الجمهور فنزلت الدموع من عيني رغماً عني. كان الهتاف هادراً للغاية، أقوى من أن يكون بسبب تسجيل هدف وحسب. وجدنا أنفسنا ونحن نتحدث أننا قد وصلنا إلى غرفته فأشعلت شمعة وإفترقنا بتحية من طأطأة الرأس.

١٠٩

أصعد إلى مصطبة الغسيل لكي أتمرن. ثمة هلال في السماء وقوس رفيع من الضوء فوق جبل فيزوف. إنه منخفض للغاية فلا يصلح لأن أتخذه هدفاً، وبدلاً منه أسدد إلى نجمة أعلى. أغلق العين السليمة وأمد ذراعي في الفراغ وأتمرن على تهيئة الرمية على شكل صفعة وستربط الأرض بالسماء بزاوية حادة. البومرانغ ساخن من أثر الرميات السابقة، وهو

Twitter: @ketab_n

ينتظر أن يتحرر من الأصابع كي يتسلق الهواء في العتمة. من خلال عيني الكليلة تبدو السماء قريبة لدرجة يمكن القفز إليها. أفكر برافانييلو وأتخيل السماء وهي ترخي حبالها كي تتركهما يعبران: هو والبومرانغ. كل مساء تنخفض السماء مقداراً إلى أن يأتي يوم يكفي أن يقوم المرء بقفزة من الأرض كي يصل إليها. السماء نفسها ستخفق الأجنحة فلا تحتاج إلى بذل أي جهد يا دون رافانيي. إتركهما مبسوطين وحسب. بالعين الكليلة يمكنني أن أرى المستقبل بوضوح.

١١٠

رغم برودة الجو يتصبب العرق مني في حين تكافح العضلات في الهواء. يد خفية تمسح العرق عن جبيني. الأرواح تحب أن تلعب بملح الجسد، تلعقه. إنها تحب أن تشرب رحيق الحياة الصاخبة. ولكنها لا تحب أن ترى الجسد ينزف دماً. تهرع لكي توقف النزيف وتغلق الجرح. تشفي الجروح التي تصيبني في غمضة عين. العين الكليلة تحدد مكان النجمة في السماء فوق كاستيل ديلو فو مباشرة وتعين الهدف. ليلة رأس السنة لا تغيب عن بالي.

١١١

ماريا تريد الذهاب إلى السينما. هناك فيلم لتوتو في سينما لوكس. في الفيلم يخرج توتو إلى الصحراء ويصرخ: يا

Twitter: @ketab_n

لروعة هذه الشمس الإفريقية، فنضحك. لماذا نضحك؟ لأننا نجلس في الصف الخلفي من صالة السينما حيث بقينا واقفين إلى أن عثرنا على كرسيين فارغين. لأننا نخرج معاً لأول مرة. لأن الجلوس في العتمة يدغدغنا، ولأن الناس يضحكون فنضحك بدورنا على توتو الذي يخرج فكه من مكانه حين يصرخ فيضطر إلى إعادته إلى سابق عهده بعد الصراخ. تضحك ماريا بصوت أعلى من الآخرين. حين ينتهي الجميع من الضحك تستمر هي في ذلك فتعدي ضحكتها الآخرين فيستأنفون الضحك من جديد. ليس ثمة ما يستدعي الضحك في الفيلم ولكنهم يضحكون من ضحكة ماريا التي تشبه دفقات قصيرة متتالية من بندقية رشاشة. هناك رجل يجلس أمامنا يشرع في الضحك بمجرد أن يسمع ضحكة ماريا. ويبدو كما لو أنه سيختنق. بعد كل ضحكة يشهق حتى يلوح لنا أن نطلب الإسعاف. سيموت الرجل، تقول سيدة تجلس خلفنا. ولكن لا. إنه لا يستسلم للموت بل يواصل الضحك حتى تنقطع أنفاسه من جديد ويهدأ قليلاً فلا تتأخر ماريا في إشعاله مرة أخرى فينطلق في ضحكة طويلة فتضج الصالة بالضحك من جديد وينسى الجميع الفيلم.

١١٢

يخرج الجميع من الصالة سعداء، رغم أن المطر ينهمر، ولم يكن أحد فكر بأن يحمل معه مظلة. يعاود رجل مسن

Twitter: @ketab_n

الضحك إذ يتذكر ضحكة الصالة فتقول سيدة: هكذا يجب أن تكون الصور المتحركة، أن تجعلنا نضحك. هي تعني السينما. والناس يستعملون هذه الكلمة، الصور المتحركة، بدلاً من كلمة شينيماتوغرافيا، أي السينما، التي يصعب التلفظ بها ويخشون أن يخلطوا بينها وبين كلمة شينيماتوكرافو. الصور المتحركة أسهل وأصدق فهي تشير إلى ـ أن الصور تتحرك على الشاشة. تتأبط ماريا ذراعي ونمشي تحت المطر مبتهجين من أثر الضحك. في البيت نتمدد على الكنبة مرهقين. تقول ماريا: هنا نشعر بالراحة والدفء. هي تقصد أن علينا أن لا نتمدد على السرير الكبير. نلتصق ببعضنا ويحتضن أحدنا الآخر ونستسلم للنوم بعد أن نتبادل القبلات الكثيرة. لقد تعلمت أن أرخي شفتي. من قبل كنت أشدهما فتصبحان قاسيتين مثل قرون الذرة.

١١٣

لا تشعر ماريا بالضيق من صوتي المبحوح بل تقول أنها تهنأ به وتحب أن تسمعه حين نتبادل القبلات. إسأليني شيئاً وأنا سأجيبك. أقول لها فتضحك وتقول: ما إسمي؟ فأجيبها ولكنها تكرر السؤال وتقول: كرر الإسم، كرره فأكرر إسمها وأقبلها ويشتعل الحب من جديد وينتفض جسمها وتبدأ تتأوه وتشهق وتشعر بالسعادة إذ أكرر إسمها. يبدو أن ماريا إسم سحري فهي تنتقل من القبلات إلى النوم في طرفة عين ويعود

Twitter: @ketab_n

عصفوري إلى عشه في الحال. أتوقف عن تلاوة إسمها فقد بدأت تتنفس من أنفها وأخذت تصدر شخيراً ناعماً.

١١٤

أستيقظ من النوم. هي تقف في المطبخ. تصب الماء الساخن على مصفاة القهوة. عندها في البيت يهيئون القهوة في جهاز كهربائي تنزل القهوة من أعلاه. لقد رأيت القهوة دوماً وهي تنزل أما أن تصعد إلى الأعلى فلا شك أن هذا يجعلها تتعب. أقول ذلك لماريا فتضحك وتقول أنني خفيف الظل. في الواقع كنت أعبر عن تعلقي بالقهوة التي تعرفت إليها مؤخراً وصرت أحبها كثيراً، سوداء ومن دون سكر. أرتدي سترة العمل وأدس البومرانغ تحتها وأمضي لأفتح درفة الشباك الخشبية. أضع نقوداً على الطاولة من أجل شراء حاجات المطبخ. بينما أنزل الدرج أفكر بأمي وأدعو أن تعود إلى البيت سريعاً كي أطرح عليها بعض الأسئلة التي تتعلق بالنساء. الجو بارد، ثمة هبة من الريح الشمالية على الدرج تجبرني أن أغلق عيني. أعرف أن الجواب سيكون نفياً. يصل أبي إلى المحل، يمضي المعلم أريكو لإستقباله. أبي يبكي. أتجمد في مكاني والمكنسة في يدي فأمدها إلى الأمام وأغلق عيني السليمة كي أتجنب رؤية وجه أبي الذي يتقلص خجلاً من البكاء أمامي. يأخذ المعلم أريكو المكنسة من يدي، يأخذها عنوة ونخرج. يغلق المحل بسبب وفاة أمي ويرافقنا

Twitter: @ketab_n

إلى المستشفى. أمي ليست هناك. لقد وضعوها في الكفن. أشبك يدي على صدري. بهذه الطريقة أستمد الحرارة من البومرانغ. هناك رائحة الكعك. ثمة رجل يفتح علبة كعك بجانب سرير مريض ويدعونا لأن نتناول قليلاً، عندئذ تطفر الدموع من عيني. الآن أعرف أنهم يقولون ذلك بالإيطالية لأن الدموع تطفر فعلاً وتخرج من العيون إلى الخارج مثل طلقات الرصاص.

١١٥

توقف أبي عن البكاء. وجهه كله خمد. ليس ثمة عصب واحد يتحرك. إنه لا يكاد يلحظ الناس الذين يأتون ويتكلمون إليه ويشدون على يده، وعلى يدي أيضاً. أغمص عيني السليمة نصف إغماضة وأقوم بما يقتضيه واجب إستقبال الناس في جبل الرّب. ثم تصل ماريا وتذهب مباشرة إلى والدي وتمسك بذراعه وتأخذه إلى الخارج فيتبعها بصمت لكي يستنشق قليلاً من الهواء النقي وأبقى أنا أحرس الجثة المكفونة لأمي التي لم تكن لترغب أن أراها على هذه الحال. جاء أهل ماريا إلى البيت كي يأخذوا الحقائب فلم يجدوا شيئاً. تركوا لها قليلاً من النقود وطلبوا من دون شيشو أن يهتم بها. كان عليهم أن يخرجوا لأمر عاجل وسيعودون قريباً. إنهم في ورطة، تقول ماريا التي كانت سمعت عن موت أمي من دون شيشو. قامت بشراء حاجات المنزل

Twitter: @ketab_n

وجاءت كي تصحبنا لتناول طعام ساخن. نذهب مشياً، والدي يسير في وسطنا نحن الإثنين. إنه لايرفع نظره عن الأرض ونقوده من بين حشد المارة الذين يمشون متلاصقين مثل حبات الزيتون في علبة مليئة. بات جسمه هزيلاً وهو يستسلم لنا وللريح التي تضرب وجوهنا فتتصلب.

١١٦

تهيئ ماريا طبقاً من المعكرونة مع البيض المقلي. أقوم بتحضير الطاولة. يجلس أبي جامداً على طرف كرسي ويفرك يديه على ركبتيه. يجلس برهة دون حراك، منحنياً إلى الأمام، تنزل الدموع من خلال أنفه وتسقط مباشرة على الأرض. تفرغ ماريا المعكرونة في صحنه وتقول: الأكل جاهز، ثم تجلس إلى الطاولة. يقرب الوالد كرسيه. يلتهم وجبته كلها، بشهية، صامتاً. ترى ماريا صحنه الفارغ ودون أن تسأله تملأه من جديد فيباشرالأكل مرة أخرى. كلما مضغ أكثر تحركت عضلات وجهه وكذلك الأعصاب والعينان والجبهة. تقول ماريا أن التجار يرفعون الأسعار في عيد الميلاد ويستغلون الناس الذين يريدون أن يستمتعوا مرة في العام. كان يجب أن نحتفل بعيد الميلاد في شهر آب. الوالد منهمك في صحنه. ينظفه بالخبز ثم ينهض ويقول أنه ذاهب إلى شركة الحمالين كي يستأنف العمل. هو كان أخذ إجازة في الأيام الأخيرة. يطلب مني أن أشتري زجاجة نبيذ ويترك

Twitter: @ketab_n

ثلاثمائة ليرة. تنهض ماريا. تنظف الطاولة. تغسل الصحون. وترتب الأشياء. تفعل ذلك بهدوء وهي تحاول أن تظهر أنها قادرة على تدبير أمور المطبخ. ورغم أن الحياة حزينة إلا أنه لا بد أن يعمد المرء إلى ترتيب الأشياء وإلا تراكمت وزادت المتاعب. من الأفضل القيام بالتنظيف ولو كانت الدموع تنهمر.

١١٧

ليس لدي ما أفعله بعد الظهر. أسأل ماريا أن نذهب مشياً على الأقدام إلى مرغيلينا حيث يمتد الميناء في البحر وفي نهايته ينهض الفنار على جرف صخري فيجد المرء نفسه في الفضاء المفتوح من دون أن تحيط به المدينة. أريد أن أذهب إلى هناك لأن البيوت والشوارع تنتهي وفجأة تختفي نابولي عن الوجود. البحر الواسع بأمواجه المتلاطمة يخفي المدينة، وعلى المرء أن يصعد إلى سارية السفينة كي يرى منظر المدينة أمامه. ترتدي ماريا المعطف والطاقية وتقف على الباب مستعدة. العفوية متأصلة فيها. على الشاطئ أشتري لها بطاطا مقلية مع البهارات. تخطف الريح الدفء من جسدينا فنسرع الخطى كي نستعيده. عدد قليل من الناس تجرأ على الخروج للتنزه. جنود أميركيون بأحذية مطاطية يمرون بالقرب منا. ناقلة بضائع هي السفينة الوحيدة التي ترسو في البحر المكلل بثوب أبيض من الأمواج. تشاهد ماريا الجنود

Twitter: @ketab_n

الأميركيين وتهتف: إنهم رائعون، ولكنهم يركضون، يركضون من دون سبب أو هدف. أما نحن فلا نخرج من بيوتنا إلا إذا وقع زلزال. ماري، هيا نركض نحن أيضاً. لا. تقول وتجرني إلى صدرها.

١١٨

بمحاذاة سفينة ميرغيلينا ثمة مراكب شراعية كثيرة يصطاد منها الصيادون السمك. الكلاب الشاردة هناك تخاف وتختبىء خلف المراكب الراسية على الساحل. نحن الوحيدين اللذين يصعدان إلى السفينة في عرض البحر الداكن. الصخور البحرية تقذف الماء في الهواء. ترتفع الأمواج وتصطدم بالسد من دون توقف فتتكسر وتتبعثر في كل إتجاه. البومرانغ القابع تحت سترتي يتحدى الريح ويرسل طاقته إلى جسدي. تراودني الرغبة في أن أقذفه نحو البحر والريح الشمالية والسفينة. نحو كل شيء يتحرك. ولكن أمي لا تتحرك. لقد توقفت عن الحركة تماماً. إلبثوا ساكنين في أماكنكم للحظة. الصوت ينطلق من حنجرتي مثل وهج صارخ، يصل إلى مسامع الناس أجمعين. تحمله الريح إلى المدينة التي تصمت لحظة كي تصيخ السمع. تشد ماريا على ذراعي. لا أتركها. أقبض بشدة على مسكة البومرانغ. في أقصى السفينة تنتصب المنارة كأبعد نقطة عن المدينة. تبدو المدينة من هنا مثل هلال ثابت. أشعر بالغبطة. يخيم السكون للحظات. هناك

Twitter: @ketab_n

أضواء تتوهج من جزيرة وسط البحر ومن المدن على طول الساحل. بجوارنا ترقد نابولي صامتة. أتنشق الهواء المالح وقد غلبني الحزن. تقول ماريا: لنعد أدراجنا.

١١٩

يرجع والدي وقت الغداء. يرى النبيذ، وقبل أن يصب كأساً يقول وهو يجهد للعثور على الكلمات الإيطالية: حتى آخر لحظة من حياتها كنت أحرسها من الموت ليلاً نهاراً. يرتشف جرعة ويقول بصوت جاف: الآن لم يعد لدي شيء أقوم به. تهز ماريا رأسها موافقة. يسرني أنه يميل إلى الهدوء. لقد رافق أبي أمي حتى اللحظة الأخيرة من حياتها. لم يرد أن يمضي أبعد من ذلك. لم يذهب حتى إلى المقبرة. يصب كأساً أخرى ويسأل ما إذا كنا نريد أن نشاطره الشراب. ماريا تقول نعم. أنا أقول لا. ترتشف ماريا قليلاً من النبيذ. يقول والدي: هذه ليست رشفة، إنها شهقة. هذه إهانة للنبيذ. تصلح ماريا الأمر بأن تكرع الكأس كلها دفعة واحدة. نشرع في تناول الطعام ببطء. تتناهى إلى أسماعنا الأصوات الآتية من البيوت الأخرى. والدي يشرب، يمرر يده على وجهه، يمسد جبهته. شكراً للغداء. ينهض ويقول: تصبحون على خير. أنام مع ماريا في سرير واحد. نتمدد جنباً إلى جنب ولكن دون أن نحتضن بعضنا بعضاً. تقول أنها نزفت. ولكن ليس بسبب جرح. إنه أمر يحصل عند النساء. لقد شربت النبيذ كي

Twitter: @ketab_n

تعوض الدم الذي خسرته. قبل أن ننام تقول لي جملتها الخطرة: أنا أفكر بك. وكالعادة لا أعرف ماذا أجيب.

١٢٠

تبادل المعلم أريكو تحية الوداع مع رافانييلو. لم أكن هناك. اليوم هو نهاية السنة وغداً يوم عطلة ولهذا يتعين علينا أن نبذل جهداً كبيراً في العمل اليوم. نقوم بتكشيط كل الخشب من أجل الأعمال القادمة. نخلق ضجيجاً كبيراً ولكن لا أحد في الشارع يكترث لنا اليوم. لا أحد يدخل المحل ليطلب من المعلم أريكو أن يكون أقل صخباً أو أن يؤجل العمل لبعض الوقت لأن هناك في البيت من لم ينم الليلة الماضية. في المحل يحاول العمال أن يستعملوا آلاتهم في اللحظات التي لا يسبب العمل فيها الإزعاج للناس. الكل منشغل اليوم بالتحضير للعيد ولا أحد يبالي بصوت المناشير وهي تقص الميليمترات من ألواح الخشب. المعلم أريكو يراقب الزوايا، يعدل، يقسم، يرتب، ثم يوزع الألواح تبعاً للوقت الذي مضى عليها. يعاتب العمال الذين قطعوا الخشب دون أن يعيروا بالاً للمدة التي مرت عليه حيث نشف وترشح منه الرايتنغ. يخبرني المعلم أريكو أن رافانييلو سوف يسافر. لقد حصل على بطاقة للإبحار إلى الأراضي المقدسة. هو واحد من الذين تناديهم أورشليم القدس. لن يرتق الناس في جبل الرّب أحذيتهم بعد اليوم. يقول المعلم أريكو. الآن

Twitter: @ketab_n

سيشترون أحذية جديدة أو أنهم سيحصلون عليها من مدير البلدية في وقت الإنتخابات. فردة حذاء قبل الإنتخابات والأخرى بعدها. أنسى كل شيء. أفكر بالعمل فقط. تغطيني نشارة الخشب. أشعر بالبومرانغ يضغط على صدري من جهة القلب. لا نتوقف عن العمل وقت الغداء أيضاً إلى أن ننتهي في الساعة الرابعة حيث يكون الظلام قد حل. نتبادل التهاني بالعيد. يناولني المعلم أريكو الأجر مضاعفاً. أنت تستحق ذلك يا بني، حظاً سعيداً. هل ستطلق ألعاباً نارية في منتصف الليل؟ أسأله. لا. يجيب. يقول أنه سيقف على البلكون ويدخن سيجاراً توسكانياً ويتفرج على الآخرين وهم يطلقون الألعاب النارية. إنه يحب الشعلة البنفسجية. دون شيشو يهيئ أفضل شعلة بنفسجية في جبل الرّب.

١٢١

أزيل نشارة الخشب عن ملابسي. أنفض نفسي كما لو كنت سجادة. يضرب البومرانغ على أضلاع قفصي الصدري ويصدر صوتاً يذكرني بصوت الأجنحة تحت سترة رافانييلو. أتذكره. هذه الليلة سأدع البومرانغ يتبع أثره. في البيت أكتب في أسفل لفافة الورق. لفات عدة وتنتهي. يجب أن أمسك بها جيداً. من جهة اللفافات التي كتبت عليها. أبري قلم الرصاص. أنتظر ماريا التي كانت خرجت. تعود وهي تلهث. ذهبت إلى بيت أهلها لتنظف وتبدل ملابسها الداخلية. رآها

Twitter: @ketab_n

صاحب البيت فإنتظرها عند المدخل وعندما خرجت تلقفها وسط الدرج. لم تصرخ ماريا بل رفسته من الخلف وتخلصت منه. لو كنت هناك لكنت رميته من على الدرج. تقول إنها مهتاجة. لقد سيطر عليها الخوف. حاول أن يشدها بأصابعه وخنقتها رائحته الكريهة. كان منفلت العواطف ولكنها صدته وتحررت منه. تنتابني مشاعر حزينة. تمتلئ أعصابي بالغضب الذي كان البومرانغ شحنه في كياني. الآن ابدو على وشك الإنفجار والإنقضاض على كل شخص وكل شيء. لن يحدث هذا مرة ثانية يا ماريا. تخرج هذه الكلمات من فمي بالنابولية. أحتد. إنها المرة الأولى التي أهتاج فيها بهذا الشكل ولهذا لا أعرف كيف يبدو وجهي جراء ذلك. تمد ماريا يدها إلي وتقول: لا تهتم، لم يحصل شيء. لقد إنتهى الأمر. إنه سافل. لم يكن يجدر بي أن أخبرك. ثم تقترب مني وتحاول أن تنظر في عيني اللتين لا أعرف ماذا حل بهما وتقول لي: أنظر إلي، أنظر إلي. في عيني. وتحرك وجهي يميناً وشمالاً إلى أن أتحرر من الأفكار السود وأنظر إليها وأمسك برسغها وأصفع وجهي صفعتين وأصر بأسناني فتشعر بالخوف وتحتضنني وحينئذ، نعم. حينئذ، أشعر بالراحة.

١٢٢

لن يحدث هذا الأمر ثانية. أكرر لها ذلك، ولكن ليس بالنابولية هذه المرة، لعلني أهدئ من روعها. اليوم إكتشفت

Twitter: @ketab_n

شيئاً عن نفسي. شيء مؤسف في لحظة السعادة الناتجة عن وجود ماريا إلى جانبي. إنه شيء جميل أن جسدي بدأ يكبر وأن هناك أشياء جديدة أتعلمها وأكتشفها. ولكن هناك أيضاً أشياء سيئة. فمع نمو جسمي ونمو قوة ذراعي في إطلاق البومرانغ تنمو داخلي قوة سيئة في وسعها أن تهجم. لقد بدأ رأسي يغلي مثل بركة من الكبريت وهذا ما يجعلني حزيناً إلى حد الغضب. هل يحدث مثل هذا الأمر مع الآخرين؟ أن تؤدي حركة طائشة من أحدهم إلى نزع الغطاء فتندفع الرغبة الدموية خارجاً؟ يعود والدي. تسأله ماريا عما إذا كان يريد أن يتناول البيتزا مساء لكي نذهب ونشتريها من عند جيجينو الذي يصنع أفضل أنواع البيتزا في المنطقة. يوافق والدي على الفور. بيتزا مارغريتا. نحن أيضاً نفضل هذا النوع. وهكذا نبدأ بتحضير الطاولة في المطبخ لكي نعود ونشرع في تناول البيتزا على الفور وهي لما تزل ساخنة. يشعر والدي بالتعب. لقد إشتغل اليوم كله في العنبر السفلي وهذا ما ينهك طاقة الكبار في السن.يجلس ويتصفح الجريدة التي مدها على ركبتيه. المصباح الكهربائي خافت النور فيجهد في القراءة وهو يضيق عينيه.

١٢٣

نلقي السلام ونخرج ولكنه لا يجيب. إنه مشغول بالقراءة محركاً شفتيه في تتبع الكلمات. أنا وماريا نعرف القراءة

Twitter: @ketab_n

أفضل منه وهذا يشكل حرجاً له. نحن من الجيل الجديد، توفرت لنا الإمكانيات لندرس ونتعلم أكثر من رجل كبير جاهد طوال حياته كي يكسب العيش بقوة ذراعه ويوفر لنا ما نريد ويعامل زوجته بإحترام. أغلق الباب ورائي وأنا أتبع ماريا وأشعر بأنني يجب أن أكون فخوراً بوالدي الذي يضطر إلى تحريك شفتيه لكي يقرأ ويكتسب قليلاً من المعرفة وهو في هذا العمر. ماري، يجب أن نشتري أفضل بيتزا في نابولي على الإطلاق. طبعاً، وإلا ما كان لنا أن نخرج من الأساس. سنشتري أفضل بيتزا ليس في نابولي وحسب بل في كل العالم. ماريا، أنا أهتم بك. أقول لها فترد: أنا أقول ذلك. أنت يجب أن تقول شيئاً آخر. فأشعر مرة أخرى بأنني غبي.

١٢٤

يصنع جيجينو البيتزا لكل نابولي. يقف الناس صفوفاً متراصة أمام الفرن. الجو بارد ولكنه يقف بأذرع عارية فيهيئ العجين ويقلبه ويديره فيما يتوجه في الوقت عينه نحو الفرن ويستخرج عشر بيتزات في غضون ثانيتين ثم يستدير نحو الناس وهو يصرخ قائلاً أنه يستعمل من زيت الزيتون في صنع البيتزا بقدر الحمم التي تسيل من بركان فيزوف فتزداد رغبة الناس في الإنتظار ولا تعمل مبالغات الدون جيجينو سوى على إثارة شهيتهم أكثر وأكثر. يسمونه أوفيتيتيني لأن لحيته طويلة ولا يعدم أن يجد أحدهم شعرة من لحيته في

Twitter: @ketab_n

البيتزا. إنه يطيل لحيته كي تخفي الندوب التي تركتها الجروح على وجهه. أقف على الرصيف فيما تمضي ماريا إلى المصطبة وتحاول أن تجعله يسمع صوتها. دون جيجي نحتاج إلى ثلاث من مارغريتاتك كي نستعيد حيويتنا. تصرخ ماريا وسط الناس محاولة أن تبدو جريئة وفاتنة. أنا أستعيد حيويتي بمجرد أن أراك. يرد دون جيجينو من خلف الطاولة حيث يلوح سواد لحيته وشعره وعيناه فيما البياض يلف بقية جسده فيبدو مثل ورقة بيضاء. في الحال يجعلنا في مقدمة الصف ويهيئ لنا ثلاث بيتزات مارغريتا، واحدة فوق الأخرى، واضعاً ورقاً مصقولاً في ما بينها كي لا يرشح منها الزيت. ثم يصرخ بأعلى صوته كي يسمعه الآخرون: إفسحوا المجال لأجمل فتاة في جبل الرّب، وتتقدم ماريا وتأخذ البيتزات من يد دون جيجينو الذي يقول أن بوسعها أن تدفع من وقت لآخر فتشعر ماريا بالزهو وتأتي إلي مختالة وتعطيني ذراعها فنمضي إلى جبل الرّب تلاحقنا أعين الآخرين. إنه لأمر مهم أن يكون هناك زوجان، رجل وإمرأة، في هذه المدينة. من يكنْ وحيداً يساوي أقل من واحد.

١٢٥

في الشارع بدأت تعلو أصوات المفرقعات. يسرع الناس نحو بيوتهم كي يلحقوا الإحتفال برأس السنة. يرتفع البخار من البيتزات التي تحملها ماريا وهي تختال بخطواتها مطرطقة

Twitter: @ketab_n

في الشارع وألاحظ أنها ترتدي حذاءً عالي الكعب. لقد لاحظت أن ماريا طويلة ولكنني لم أنتبه إلى الحذاء إذ أعتقدت أنها تطول سريعاً من يوم لآخر. الآن ألاحظ الكعب العالي ومع هذا أعتقد أنها طالت أكثر من اللازم. لقد أسرعنا الخطى دون أن ندري فها قد بلغنا آخر سقف على قمة جبل الرّب وبتنا وجهاً لوجه أمام النجوم. دون جيجينو لاحظ الأمر فوضعنا أمام الجميع. لقد لاحظ أننا على عجل وأننا نكبر سريعاً. ماريا باتت أطول مني. لقد تغير شكلها من فتاة إلى إمرأة لكل من يمعن النظر فيها. أنا لا أتفوه بشيء فكل ما تفعله هو بالنسبة لي عين الصواب.

١٢٦

ندخل البيت فنجد أن الوالد قد نعس والجريدة على قدميه. أرفع الجريدة فيفتح عينيه وينظر حوله مندهشاً ويمرر إحدى يديه على وجهه ويقول: إعتقدت أنني جالس بالقرب من سرير أمك. لا تمنحه ماريا الوقت كي يستغرق في الأفكار وتهتف وهي تطرطق الصحون: الأكل جاهز. أخلع السترة وأضع البومرانغ على الطاولة. أما زلت تحمله؟ يبدو أنه أعجبك. لقد نسيته بالكامل. يقول والدي وهو يقطع لنفسه قطعة من البيتزا، الأفضل في نابولي بل في العالم كله، ثم يسألني إن كان يطير: مثل البيتزا في يد دون جيجينو. تقول ماريا، ولكنه لا يهتم بالجواب فقد نسي الأمر وراح يمضغ

Twitter: @ketab_n

الأكل. أخبره أن دون جيجينو خدمنا قبل الجميع. كان يفعل الشيء نفسه معنا. إنه يسر لرؤية الأزواج. يقول هذا متذكراً الزمن الماضي. يشرب كأس نبيذ ويصب واحدة لماريا ثم يقول أنه لن يسهر حتى منتصف الليل. يكسر حبة جوز بيده ويمضغها بتلذذ. أمي كانت تحب اللوز. ولكن ليس ثمة شيء منها اليوم. لم نشترها. حول الطاولة يخيم شيء من الحداد.

١٢٧

لقد أخذ أردية أحد زملائه في العمل. غداً سوف يعمل بدلاً منه ليقضي الآخر رأس السنة في البيت. هو يريد أن يعمل ويتعب ويقول أنه سعيد لأن هناك أحداً في البيت وثمة طعام ساخن. ينهض، يقول تصبحوا على خير وقبل أن يصل إلى باب المطبخ يستدير ويقول شكراً على البيتزا. ماريا تبتسم له أما أنا فإن الحزن يغمرني فابلع ريقي وأنهض وألتقط البومرانغ. بهذه الطريقة أسيطر على نفسي. يمضي كل شيء بسرعة. لا أستطيع اللحاق بشيء. الأشياء تتبدل من لحظة إلى أخرى. وهو يقول شكراً لشيء صغير كهذا فيما حياته السابقة وصلت إلى نهايتها وهناك في الخارج يحتفلون بالعام الجديد ويودعون العام الآفل وهو يقف وقلبه متعلق بالسنين التي مضت. أشرع في تنظيف الطاولة. ماريا تغسل الأطباق وفي الخارج يعلو الهياج. مرة واحدة في السنة تقلد المدينة بركان

Twitter: @ketab_n

فيزوف فتقذف النيران واللهب. نطفئ الضوء ونراقب الشارع من النافذة.

١٢٨

يرقد البومرانغ على صدري وينتفض مع دقات قلبي. تضع ماريا أذنها على صدري، بين الكتف والعنق، وتكرر ما تسمعه: بم، بم، بم، وتقول قلبك يسرع مع أنك ساكن. داخل صدرك ثمة صبي يقذف حجارة على الحائط. أغمض عيني السليمة. البلكونات والأضواء المشعة في الجهة المقابلة من الشارع تبتعد وتغدو مثل مشاعل وسط الظلام. بم، بم، بم، لكي نعيش يجب أن يسرع القلب دقاته. ولكي نقفز ونرمي الأشياء في الهواء ونركض يجب أن يسرع القلب دقاته. بم، بم، بم، تستمر ماريا. صوتها يجعل الدم ينزل إلى بطني والريق إلى فمي. ماريا، أقول لها، سأصعد إلى غرفة الغسيل في منتصف الليل وسأطلق البومرانغ. سأصعد معك. تقول. سيطير رافانييلو وستنهض الأرواح كلها لتودعه. أرواحنا فضولية. إنها تريد أن تلمس إسكافياً ذا جناحين. الأرواح لا تتقن الطيران. إنها تعرف أن تدفع الهواء إلى الأعلى ومن ثم تختفي في الشارع. لا تسمع ماريا الأشياء التي ينطقها صوتي الضعيف. إنها تفكر بدمها. لقد ترك النبيذ أثره في.تقول. هذه أول مرة أشربه. إنه رائع. لقد أعجبتني

Twitter: @ketab_n

حركة والدك. طريقته في صب النبيذ. كان يمسك بالقنينة بشكل ثابت ويدع النبيذ يتدفق بهدوء.

١٢٩

ماريا جميلة بالدم الذي تفقده والنبيذ الذي يعوضه والشعر الأسود الذي يدغدغ عنقي والفم الذي ينفتح وينغلق بحركة الشفتين كي يقول: بم، بم، بم. إنها توزع القبلات في الظلام كي تقلد صوت القلب. نبقى عند النافذة حيث يشتد الصخب. ينفلق جبل الرّب بالألعاب النارية ويتصاعد غبار المفرقعات نحو السماء. تأتي الأصوات من ناحية البحر. يجلس رافانييلو في قوقعته ويسخن جناحيه. لقد حان وقت الصعود إلى السقف يا ماريا. نترك النافذة بقفزة فينتفض البومرانغ عن القلب. فلنصعد يا ماريا. تتناول ماريا ذراعي وهي غارقة في الأفكار. الصخب القادم من الخارج يملأ الدرج. من حولنا يعلو الغبار والهياج. إنها الأرواح التي تحيط بنا وتدغدغنا. إنها تهمس لنا بالدعاء في العام الجديد. الأرواح تحبنا. وأنا أحبها أيضاً. ربما تكون أمي أيضاً وجدت الوقت الكافي كي تلحق بالأرواح وتأتي. مع أن الأرواح تلبث ملتصقة بالأجساد في الأيام الأولى. فيما بعد تنفصل عنها وترجع إلى عليائها. ماريا تلتصق بي أكثر فأكثر.

Twitter: @ketab_n

على السقف علقت شرائط من الأضواء الملونة. تمتد الشرائط بين السقوف وتتدلى في الهواء. والألعاب النارية تتصاعد مع أن منتصف الليل لم يحن بعد. أحاول أن أدفئ مقبض البومرانغ ولكنه دافئ من تلقاء نفسه. البومرانغ يشحنني بالقوة. قوته هي قوتي. سأضع قدراً كبيراً من الطاقة في ذراعي. ولكن أي ذراع؟ اليمنى أم اليسرى؟ اليسرى من جهة العين السليمة التي سأبقيها مغمضة. أنظر إلى النجوم وأبحث عن تلك التي كنت رأيتها من على البركان. أتعرف إليها. إنها تضئ أكثر من النجوم الأخرى. أشير إليها بطرف البومرانغ وأقول: إنه الشرق. سأقذف البومرانغ إلى هذه الجهة. تذهب ماريا إلى حافة السقف وتستند إليها بمعصميها وتحاول أن تدقق النظر. تسمع أو لا تسمع. قد يكون ذلك من أثر النبيذ أو التعب أو الدم. يصل رافانييلو. جناحاه تحت حزام صوفي. سترته لم تعد تكفي لإخفائهما. كيف حالك يا دون رافانيي؟ لا يجيب. يحتضنني وأشعر بدفء الريش. بليب غزينت. حظاً سعيداً. ثم يخلع حذاءه. دون رافانيي، هل ترى تلك النجمة؟ ستمضي أنت والبومرانغ من تحتها. سيفتح البومرانغ الطريق لك وسط الألعاب النارية. ماريا تقف صامتة لا تتحرك. ها قد حل منتصف الليل. نابولي تشتعل. تنفجر. تتبعثر. تتدحرج في الشارع. لا يسمع أحد أحداً. تنفلت

Twitter: @ketab_n

الطاقات من عقالها وتنطلق في الهواء، على الأرض، على الجدران. أقبض على البومرانغ الذي لم ينفلت من يدي بعد.

١٣١

تحترق يدي. ستحترق فعلاً إن لم أطلق البومرانغ في نهاية الأمر. أصابعي تحكني كي أطلقه. أنفخ عليها. يزداد الأمر سوءاً. أشد أعصابي. أقبض بأسناني على الفراغ. اسحب نفساً عميقاً. أسحب البومرانغ إلى ما وراء كتفي. أغمض عيني السليمة. أتطلع إلى السماء الزاخرة بالأضواء مثل بحر آب الذي يزخر بأسماك السردين. أسمع أنين الأصابع التي تتألم من الحريق. ينطلق البومرانغ واللهيب في ذيله. ينطلق بقوة لا نظير لها. ينطلق، يتوهج، يطير، يضرب الهواء. يداي فارغتان الآن. أضلاعي تصطدم ببعضها. وفقرات ظهري تطرطق. أستدير فأرى رافانييلو، جناحاه ممدودتان على وسعهما. قدماه ترتفعان عن الأرض ثم ترجعان ثانية. مرة، إثنتان، الهواء الخارج من أثر خفق الجناحين يصير أقوى وأقوى. الأرواح أيضاً تهب لنجدته فيرتفع رافانييلو عن الأرض وفي المحاولة الثالثة يقفز ويلحق بالأثر الناري للبومرانغ وفي الحال تعلو الأصوات صاخبة وأحس بالأنفاس على وجهي فأرفع ذراعي لكي ألوح له بالوداع الأخير.

Twitter: @ketab_n

أتحسس مقبض البومرانغ. لا أثر للإحتراق، بل إنه بارد. على الأرض ثمة غطاء الصوف الذي تركه رافانييلو وريشتان وزوج حذاء وسط الغبار والمفرقعات والألعاب النارية التي تنطلق إلى السماء وتضرب الجدران فيتردد صداها في كل أرجاء جبل الرّب. أفتح عيني السليمة فأرى ماريا تصارع ظلاً. أهرع إلى الحافة حيث الصراع. أمسك الظل من كتفيه. القوة تحرق ذراعي. أرفعه عن ماريا، وعن الأرض وأقذفه بعيداً، أقذفه بقوة هائلة تطيح به في الهواء فيطير، يطير عن السقف الأعلى في جبل الرّب وسط جلبة الصحون التي تتطاير من النوافذ. كل شيء يطير، إلا نحن. نجلس متشابكين تحت بطانية رافانييلو الصوفية. ماريا ترتجف، أما أنا فأنفث كتلة من الهواء الساخن من حلقومي. إنه صوتي، مثل نهيق حمار. يمزق رئتي. أصرخ. لا وسع لصراخي. لا في لفافة الورق ولا في جبل الرّب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أري دي لوكا

يقف أري دي لوكا، اليوم، في صف أقطاب الرواية الإيطالية الحديثة. وهو لا ينفك يحتل مكانة تتعاظم من مساحة الأرض الإبداعية في إيطاليا. وليس ذلك إلا لأن نصه الروائي يختزن قدراً كبيراً من الأصالة والجمال.

جاء أري دي لوكا متأخراً إلى الكتابة. وهو جاء إليها من السياسة. لقد خرج من تحت معطف مقولة الإلتزام ولكن بعد أن نزع عنها قشرة الإيديولوجيا الصارمة وأكسبها جاذبية سحرية.

ولد في نابولي عام ١٩٥٠ في عائلة متوسطة الحال. انخرط في منظمة la lotta continua (النضال يستمر) اليسارية المتطرفة، وفي عام ١٩٧٦ انطلق إلى الانخراط في الأعمال اليدوية ليكون في صفوف «البروليتاريا». عمل في إيطاليا وفرنسا وأفريقيا: سائق قطارات، سائق شاحنات، عامل سكك حديد، عامل بناء. في حرب البوسنة عمل سائقاً لمنظمة إنسانية.

صدرت روايته الأولى بعنوان: non ora ,non qui (ليس

Twitter: @ketab_n

الآن، ليس هنا) عام ١٩٨٩. ومعها بدأت الثيمة الأساسية لكتابته تظهر للقارئ: العزلة والقلق والحب والإيمان والانخراط في مسؤوليات العيش.

يمنح أري دي لوكا الأشياء الصغيرة من يوميات العيش جمالية هادئة وآسرة. هو يقارب مسائل عميقة تمس الروح والوجدان وتلامس الفلسفة والدين والشك والبحث السيزيفي عن معنى الوجود. لكنه يفعل ذلك بلمسة شاعرية بسيطة ومرهفة. بلا حبكات درامية معقدة ولا سعي في أثر مادة قصصية مثيرة. نصه الروائي أشبه بقصص ـ قصائد متباعدة ومع هذا فإنها تمسك بالقارئ وتسحره. وفي حين تبدو شخصيات الرواية بسيطة، عادية، من دون خلفيات فكرية أو فلسفية فإنها تتمتع بحكمة عميقة في مقاربة الحياة.

الرواية التي بين أيدينا هي يوميات فتى في الثالثة عشرة من العمر، يسكن مع أسرته في حي يسمى جبل الرّب. تنفتح نوافذ جسده وعقله وروحه أمام الحياة. يدون الفتى في دفتره ما يدور من حوله ولكن ما يدور في أعماقه أيضاً. هي يوميات العيش اليومي المرهق ومتاعب الجسد المراهق الذي بدأ للتو يتعرف إلى معاني الحب والصداقة والشغف بالوجود.

الزمان هو بداية الستينات في إيطاليا حيث الواقع الإجتماعي والإقتصادي يهيمن بثقل صارخ على الناس ويلوح

Twitter: @ketab_n

هذا الثقل بأوضح ما يكون في نابولي التي تكتظ بالفقراء والمعوزين ممن يلتهم العمل الشاق وقتهم وجهدهم ومشاعرهم.

في هذه الأجواء يتعرف الفتى، الذي لا نعرف اسمه، إلى الناس المحيطين به وإلى نفسه معاً. يتعرف إلى سلوك الناس وأفكارهم ورغباتهم ومشاعرهم مثلما يتعرف إلى رغباته ومشاعره. تنكشف له هويات الناس مثلما تنكشف هويته هو أيضاً. هوية جسده وعواطفه وتوقه إلى الحنان والحميمية.

فتى بريء، طيب القلب، ساطع الذكاء، يحفر طريقه بصعوبة في هامش العيش داخل الأزقة المهملة لحي جبل الرّب المهمل في نابولي.

هو يعمل في محل النجارة التابع للسيد أريكو. في عيد ميلاده الثالث عشر يتلقى هدية تأسر لبه: لعبة البومرانغ. ذلك القوس الذي يرتد إليه كلما قذفه في الهواء. يتعرف إلى رافانييلو، اليهودي الأحدب الذي نجا من الهولوكوست. كان رافانييلو اختبأ في مكان سري ولم يعرف كم طال به الوقت قبل أن ينطلق إلى القدس. ولكن الرحال حط به في نابولي. تنعقد عرى صداقة آسرة بين الفتى ورافانييلو. يغدو رافانييلو بالنسبة إليه بمثابة أب روحي، يعلمه الحكمة والصبر والأمل. يقول رافانييلو أن الحدبة التي في ظهره ليست سوى مقدمة

Twitter: @ketab_n

لجناحين يأخذان بالنمو حتى يحين الوقت ليطلعا فيطير بهما ويذهب إلى حيث يشاء.

ماريا، فتاة الجيران التي في عمر الفتى، تظهر لتكمل المشهد وتملأ عالم الفتى. معها يدرك الفتى اشتباك الروح والجسد. الخيوط الأولى لحب رقيق وشفاف تنعقد وتؤلف نسيجاً ناعماً يمد الفتى بقوة تعينه على مواجهة المصاعب. الآن بات الفتى يدرك أن الإنسان المعزول، الذي يفتقد الحب، هو أقل من كائن إنساني.

والد الفتى رجل فقير وأمي. هو لا يستطيع التكلم باللغة الإيطالية، كما يقول، بل يتكلم النابولية وهو يعتمد على ابنه في قراءة الفواتير والأوراق التي تأتيه. يورد الكاتب مقاطع عدة بالنابولية في متن الرواية. يقول الوالد للفتى: «نحن في إيطاليا ولكننا لسنا ايطاليين، نحن نابوليون. نتكلم النابولية ولكننا مجبرون على تعلم الإيطالية. نتعلمها كلغة غريبة مثل أي أجنبي... أنت ستتعلم الإيطالية، أما نحن، أنا وأمك فلن نفعل. سنموت من دون أن نتعلمها وسنبقى على لغتنا النابولية». تمضي الحياة في نابولي بطيئة ومملة. وهكذا يمضي السرد الذي يتغلب على الملل بالحيوية الطافحة التي يكتب بها الفتى يومياته. الأحداث الصغيرة والأحاسيس النابضة بالشوق إلى حياة جميلة والعلاقات البسيطة ولكن الحميمة بين الأشخاص المعدودين الذين يرد ذكرهم في سرد

Twitter: @ketab_n

الفتى تلتحم وتؤلف مشهداً شاعرياً. تبدو المقاطع الصغيرة والباترة لليوميات، والتي تؤلف فصولاً بذاتها، كقصائد ملونة في ديوان شعري. سرد هادئ لحياة هادئة. عين شاعرية لفتى نبيه يراقب الزمن الذي يمضي بالجميع إلى الأمام فيتعلم ويحب ويتأمل ويكتسب الحكمة وشهوة الحياة.

لا غرابة أن أري دي لوكا يحتل مكانة عالية في المسرح الإبداعي الإيطالي اليوم فهو يعيد كتابة النص الروائي الإيطالي بلغة جديدة. يستخرج ذلك الكنز الكتابي الممتد من ماركو بولو ودانتي وصولاً إلى أليساندرو باريكو ويصوغه من جديد جاعلاً إياه مزيجاً من القصة القصيرة والشعر والسينما والخاطرة والتأمل.

المترجم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«جبل الرّب» أو بُكم التاريخ...

إسكندر حبش

غريب هو عالم الكاتب الإيطالي أري دي لوكا. إذ استطاع أن يعرف، عبر عدد من الروايات، كيف ينسج عالماً متماسكاً، يرتكز في جزء منه على سيرته الذاتية المليئة بالأحداث والنضال والمنفى. وما الغرابة هنا إلا هذا السحر الذي يقودنا إليه من كتاب إلى كتاب، لا ليخبرنا فقط عن تاريخه الشخصي، بل لننظر معه إلى فترة من التاريخ الإيطالي الحديث، لكن من دون أن يسقط ولا في أي لحظة في متاهة اللعبة التاريخية المبسطة التي تروي مجرى أحداث فقط.

يأخذ التاريخ عنده، شكل المواجهة مع الكائن؛ إنه أيضاً تلك اللحظة التي تتيح له أن يعيد التفكير في هذه الحياة بشقيّها: العام والخاص. من هنا تبدو أفضل طريقة، بداية، في فهم ذلك كلّه، أن ننظر إلى سيرته الذاتية. ولد أري دي لوكا في أحد الأحياء الشعبية في مدينة نابولي، العام ١٩٥٠، ومنذ مطلع شبابه إنخرط في النضال السياسي مع حركة «النضال مستمر» وهي إحدى

Twitter: @ketab_n

التنظيمات اليسارية المتطرفة التي أسسها أدريانو صوفري (الذي يقبع اليوم في السجن لإتهامه بمسؤولية التفجيرات التي حدثت في أواخر السبعينيات).

اتهمت هذه الحركات باختطاف رئيس الوزراء السابق ألدو مورو وإعدامه، ومن يومها بدأت الحكومات الإيطالية المتعاقبة بمطاردة من تبقى من هؤلاء المناضلين، الذين اختاروا المنفى بدلاً من السجن. فما كان على دي لوكا إلا أن غادر إيطاليا بدوره متنقلاً ما بين الهند وفرنسا قبل أن يقرر العودة إلى دياره لعدم ثبوت مسؤوليته عن أيّ من هذه الأعمال العسكرية، ليعمل في مهن عديدة: ساعي بريد، نادل في مطعم، بنّاء، وهي المهنة التي لا يزال يمارسها لغاية اليوم على الرغم من النجاح الأدبي الذي يعرفه، والذي جعله واحدا من أشهر كتّاب إيطاليا وأوروبا في الوقت الراهن.

مسارات متعددة

من هذه المسارات المتعددة، ينطلق الكاتب الإيطالي في تشكيل عمارته الأدبية التي تتراكم فيها الطبقات المميّزة، ومن هذه الطبقات الرائعة، رواية «مونتيديديو» «جبل الرّب» التي حازت جائزة «فمينا» الفرنسية لأفضل كتاب أجنبي عن عام ٢٠٠٢، كما اختيرت كأفضل عمل إبداعي إيطالي للعام عينه. رواية، لا نستطيع إلا قراءتها إلا بكونها صدى لهذا «النضال» على الرغم من أنها لا تسقط ولا في أي لحظة في الخطاب

Twitter: @ketab_n

المباشر، بل أنها تنجح دائماً في المحافظة على هذه القوة الأدبية التي تغلفها.

أول ما يشدّنا ـ ومنذ البداية ـ في رواية «جبل الرّب»، هي هذه الأهمية القصوى التي يفردها الكاتب لـ «بُكم التاريخ». إذ أن أبطاله هم من أولئك الذين لا نسمعهم، أو ببساطة من الذين لا صوت لهم. من هنا نجده يتمهل في التقاط هذه «الذاكرة الأدبية» التي تنزلق في هذه الأحياء الشعبية، المنسيّة من قبل الجميع، والتي لا تُشكل عادة نقطة اجتذاب للأدب الحديث. فما يقوم به الكاتب هو تسيير نظرتنا نحو هؤلاء «المتواضعين» من دون أن نغرق أبداً في لعبة إثارة الشفقة أو التواطؤ مع وضعهم الإجتماعي، أو حتى مع هذه السهولة التي يقترحها عادة كل موضوع مماثل.

يُشكل راوي الكتاب الشخصية الرئيسية وهو مراهق، قليل الكلام، لكنه كثير الملاحظة والمراقبة، يكتب كلّ مساء وبشكل سرّي انطباعاته عن يومه بكل أحداثه وتفاصيله. هذه الانطباعات أو الملاحظات هي التي تشكل كلّ مادة الرواية، التي تأتي على شكل يوميات (وان كانت لا تحمل تواريخ لأيام). من هذا الإقتراح الروائي، تجعلنا رواية «جبل الرّب» نقرأ نص أحد هؤلاء البُكم، أي أن وجهة النظر التي يتم تبنيها، تدعونا وحدها إلى «هذا الجانب الآخر»، أي إلى جانب أولئك الذين لا يملكون القدرة على الكلام، مع العلم أن الراوي في واقع الأمر، لا يفعل شيئاً سوى إسكات نفسه، يكتب قليلاً: «**علموني أن لا أطرح**

Twitter: @ketab_n

الكثير من الأسئلة وأن أخفي حشريتي... أرغب في أن أقول ما تعلمته في نومي، لكنني أصمت... أصمت كي لا أقول الحماقات...» أو أيضاً: **«إنها أفكار بكماء لا تستطيع أن تعرفها... أنا أيضاً أميل إليها لكنني لا أعرف أن أقولها بطريقة صائبة، لذلك أصمت..»**. من هنا، وعلى الرغم من هذا الصمت المفروض، نفهم تصاعدياً أنه يكتب بالضبط لأنه لا يتكلم، أي تنتهي الحكاية حين يجد أخيراً صوته الخاص به.

لغة الأبكم

إزاء ذلك كلّه، ثمة سؤال يستحق أن يطرح نفسه: بأي لغة يختار هذا الأبكم أن يكتب؟ سؤال مشروع طالما يبدو أن دي لوكا يضع مسألة اللغة في قلب إهتماماته الروائية، أي أن روايته هذه تُفسح حيّزاً كبيراً للحديث عن هذا الإنشقاق الواقع ما بين «اللغة النابوليتانية» وما بين اللغة الإيطالية. مشكلة حقيقية تجتاز جزءاً كبيراً منها وإن كنا نلاحظ أن بعض الشخصيات الأخرى تحاول مدّ الجسور ما بين اللغتين، تماماً كأب المراهق «الأبكم» الذي يعبر عن نفسه بشكل مباشر عبر لهجته المحلية بينما كان يتعلم الإيطالية رويدا رويدا، وكأنها «لغة نهار الأحد». بيد أن هذه اللغة الثانية تبقى بالنسبة إليه لغة شبه غريبة، إنها لغة الناس «الذين يتعلمون في المدارس»، إنها لغة المناسبات الكبرى. وعلى الطرف الآخر نجد إبنه الذي يملك «هويّة لغوية مزدوجة حقيقية»، إذ أنه يتكلم «النابوليتانية» في كلامه الشفهي اليومي، والإيطالية حين يكتب. فإن كان الشعب يُعبر بلهجته المحلية أي

Twitter: @ketab_n

بلغته الحيّة «الذي يشعر معها بالراحة والطمأنينة» لأنها لغة الشارع والصراخ، فإن الراوي يختار أن يكتب بالإيطالية، وما الخلاف هنا مجرد خلاف روائي بل أكثر من ذلك: «**أعرف أن الإيطالية هي لغة وديعة إلا أنها تبقى لغة الكتب، أكتب بالإيطالية لأنها لغة صامتة ولأنني أستطيع أن أضع فيها أشياء يومي، البعيدة عن ضوضاء اللغة النابوليتانية**».

ما يقترحه الراوي إذا هو الكتابة بلغة صامتة، من هنا لا يبدو الخلاف سهلاً، على الرغم من أن الراوي يحيل كل شيء ولو ظاهرياً إلى مشكلة «البكم». ومن هذا الحيّز، يتحول الدفتر الذي يكتب فيه إنطباعاته إلى «زمن التجربة» وإلى مختبر يكتشف عبره «زمنه» الخاص الذي يقوده في النهاية إلى إكتشاف القدرة على الكلام. لذلك قد نخطئ كثيراً في ما لو إعتبرنا أن الدفتر ليس سوى مجرد دفتر مسودة. فالنص الذي نقرأه ليس تخطيطاً أولياً أو حالة تمهيدية لنص سيجيء في ما بعد، إنه النص الذي علينا أن نبحث فيه عن هذه الكيفية في كونه تلك القوة الحقيقية للمتقاطرات، أي تسلسل الأحداث التي تقوده في النهاية إلى اكتشاف صوته، إلى اكتشاف هذه القوة المعبرة.

للوهلة الأولى، لا تبدو الشخصيات التي تسكن حي «مونتيديديو» (جبل الرّب) في نابولي ـ (أي الشخصيات التي تسكن الدفتر، مثلما تسكن حياة الراوي اليومية) ـ وكأنها تستطيع التحرر من استدارات اللغة هذه، على الرغم من أن هناك الكثير من الفقراء السائرين في شوارع ذلك الحي: «**لدرجة إن أردت أن**

Twitter: @ketab_n

تبصق أرضاً فلن تجد مكاناً لذلك من كثرة الأقدام». أشخاص يسيرون وينتظرون بصمت بعيداً عن هواجس اللغة. صمت هو الوجه الآخر للبكم، لدرجة تشعر معه أن الوجود يستحيل أحياناً إلى نوع من الخدعة يشعرك بالعار: **«إننا أحياء عن طريق الخطأ، موجودون بالخفاء عن الله»** يقول أحد الراشدين المقربين من الراوي. من هنا ثمة سؤال آخر يطرح نفسه: إذا كان الصمت يلف المكان وإذا لم يحدث أي شيء ولم يقل أحد أي شيء، فممّ عندها تتألف المادة الروائية عند أري دي لوكا في كتابه هذا؟

النضج والنضال

إن استطعنا التحدث عن حدث ما، نجد أن هذا الحدث بأسره يتشكل من عمل بطيء لما يمكن أن نسميه «بعملية النضج». فكلّ القصة تنحرف عن كل أنماط إنتشار «الموتيفات» لتقف عند حدود المشاهدة التي تتطور مع تطور شخصية الراوي. من هنا، قد تكون القصة الوحيدة هي قصة لعبة «المرتدّة» (سلاح قذفي من خشب يستعمله الاستراليون الأصليون ومن خصائصه انه يرتد إلى قرب مطلقه إذا لم يصب الهدف)، التي تعطى للمراهق، لتشكل أحد خطي الحكاية. كلّ مساء كان يذهب للتدرّب على هذه اللعبة بعيداً عن أعين الجميع، ليقلد بدون توقف حركة الرماة، من دون أن ينجح في النهاية في الوصول إلى هدفه في أن يصبح رامياً ماهراً، إذ «تتجمد» حركته في النهاية. من هنا إن إستعارة هذه الحركة لا تصل إلاّ إلى القطيعة النهائية، أي بانتظار حدوثها. أما الخط الثاني الذي يوجه السرد، فهو تنويع آخر على هذا

Twitter: @ketab_n

«الموتيف»: إنها حكاية رافانيبللو، اليهودي الأحدب الذي نجا من معسكرات الإعتقال، والذي كان يشعر بأن جناحين ينبتان في ظهره. هنا أيضاً تأخذنا هذه الحكاية إلى قرب حدوثها أي إلى لحظة توقعها: **«في الليل، تقرقع عظام الجناحين في حدبته، يحاولان أن يتحركا ويشعرانه بالألم. سيحدث ذلك عمّا قريب».** قصتان لا تمثلان سوى «الوعد»، الوعد القريب بالطيران، وهي الفكرة التي تتأسس عليها الرواية وتحركها. لذلك تبدو الكتابة وكأنها تلعب دور المحرك للرمي كما المحرك للجناحين، وبخاصة أن لعبة المرتدة قد تبدو بمثابة تنويع أو إستعارة لشكل الجناحين اللذين يطيران. هل هو الطيران عن الواقع صوب أفق جديدة؟ سؤال أساسي تأتي الرواية لتطرحه، وليشكل فكرة عزيزة على قلب دي لوكا، أي تغيير الواقع، ألم يكن «نضاله» السياسي من أجل ذلك؟

رواية «جبل الرّب» ليست في الواقع إلا قصة هذا النضج، وقصة هذا التطور الذي لا يستطيع أحد أن يعاكسه: إنها قصة مرور الراوي من المراهقة إلى سن الرشد. إنه الإنسلاخ عن صوته، عن عضلاته، عمّا تبقى من جسده لدرجة انه لم يعد يعرف نفسه. ولم يكتشف ذلك كله إلا عبر شخصية ماريا الرائعة التي تشرح له أن هذه اللعبة ليست سوى إمتداد ليده. من هنا حين تحلّ ليلة الطيران الموعودة يتحول الأمر إلى أكثر من لعبة طيران خشبية يرميها الراوي في الهواء: لقد فاز لحظتها «بشيء حقيقي» وصار لديه القدرة الحقيقية على أن يسمع نفسه. من وجهة النظر هذه تأتي نهاية الرواية لتشكل بداية أكثر من كونها خاتمة، إذ

Twitter: @ketab_n

نعرف ونفهم بأن البكم المزعوم للغة المكتوبة يلعب دوراً مضاداً ويعمل على تخطيها كي يسمع جيداً هذا الإرتقاء المضاد: إنبثاق عبارة حرة في صوت رجل... فالصمت يصبح هنا ولكي نستعيد عبارة أساسية في الكتاب «شد زنبرك الرامي الوحيد».

لا يبدو دي لوكا «شخصاً مغفلاً»، فالبُكم عنده لا يمتزج أبداً مع «عدم المعنى». من هنا تتأكد لدينا ما يسميه «فكرة الإحتياط الخصب» أي المرور من البكم إلى العمل على طريق الإلتزام. ومن هنا يخرج الشاب من الكتابة بعد أن تمتلئ يومياته الحميمة ليغادر الأمكنة التي شكلت حياته الأولى، حياته كطفل صامت، ليتبع ذلك التغيير الجذري: الرحيل، العيش، التكلم بصوته الخاص، ليشكل ذلك كله أمراً واحداً، إذ بعد أن يرمي «المرتدة» تشكل حركته هذه استعارة لا يمكن التراجع عنها: لا تعود اللعبة إليه أبداً.

من الحسنات الجيدة في هذا النص هو إعطاء فكرة عن «الإلتزام»، الذي هو بحاجة إلى وقت طويل قبل أن يتأكد، أي أنه بحاجة إلى تلك الإندفاعة الداخلية، إلى هذه النقمة التي تكبت اللحظة كي تحمل معها كل شيء. من هنا قد نستطيع أن نصف الرواية بأنها رواية تبحث عن مكان آخر، أي بمعنى آخر، أنها رواية ما قبل الحدث، إنها الرواية التي تمهد لحكاية ستكتب في ما بعد، وإن كانت لا تحمل أي وعد كاذب أو أي «نور» يريد أن يقترحه على البشر ليأملوا به.

«جبل الرّب» رواية عن أفق ما، لا يتراجع كلما اقتبرنا منه،

Twitter: @ketab_n

أي أنها ترفض كل هذا العالم الساكن، الإفتراضي، لتجعل من النص عتبة قد نتجاوزها: إنها بداية المشروع الكتابي الذي لا ينتهي.

هذا الرفض للعالم الساكن، الإفتراضي، نعود لنجده في روايته «عكس الواحد» (منشورات غاليمار)، وبدءاً من الحاشية التي يضعها في مقدمة الكتاب. يقول دي لوكا: «رقم إثنين ليس رقماً مزدوجاً بل هو عكس الرقم واحد، عكس وحدته. اثنان هو التزاوج، الخيط المزدوج الذي لم ينكسر».

أعتقد، أن هذه الأسطر القليلة، تستطيع أن تشكل لنا مساعداً، مفتاحاً، إشارة ترغب في القبض على وحدة الكاتب الإيطالي الإشكالية. فإن كانت شخصية الكاتب تمارس علينا سحراً لا يقبل الجدل، إلا أنه وفي الوقت عينه يضللنا عبر تعددية حيواته كما عبر تنوع أعماله، بخاصة. (مثلما أشرنا في البداية). فلو حاولنا النظر إلى «الصفات» التي تشير هذه التعددية لوجدنا فيه ذلك الثوري «الستيني» والعامل القديم، وقارئ التوراة بالعبرية، والمناضل الإنساني، ومتسلق الجبال على أعلى مستوى (شارك في العديد من البطولات الدولية)، كما ذلك الكاتب «النابوليتاني» (نسبة إلى مدينة نابولي). وعلى الرغم من ذلك كله، تشعرنا قراءة أعماله وبعيداً عن تنوع الموضوعات التي يعالجها والأساليب التي يتبعها بأن هناك كتابة ذاتية بطريقة غير مختزلة، لا تُقلد، لدرجة أنه حتى القارئ الذي لا يعرف جلّ أعماله لا بدّ أن يشعر وبدون تردد أنه يقرأ عن أري دي لوكا. قد يكون ذلك الإحساس ناجماً

Twitter: @ketab_n

عن كون الكاتب يتطرق إلى كلّ ما يمس هذا الرجل ذا التجارب المتنوعة والمتعددة، أو لأنه يغوص في كلّ مرّة إلى أقصى موضوعه.

هو أيضاً المناضل في المنظمات الإنسانية غير الحكومية، ما دفعه إلى التجوال عبر العالم حيث أصيب بالحمى في تنزانيا أو ما دفعه إلى التجول خلف مقود شاحنة ليجوب البوسنة حاملاً معه المواد الغذائية والأدوية. ليقرأ التوراة، تعلم «اليديشية» والعبرية ليس فقط من أجل دخول أعمق إلى النص الذي يقوم بترجمته لإحدى الدور الإيطالية، بل لكي يتآلف أكثر مع هذا التقليد «التوراتي: لدرجة أنه كتب هو نفسه تأملاته في هذا النص «المقدس». من هذا كله يصنع دي لوكا أدباً لم تتوقف دائرة قرائه عن الإتساع، يوماً بعد يوم.

يقترح علينا كتابه «عكس الواحد» عنواناً لغزاً يشكل حلّه نوعاً من التناقض: الوحدة والتحالف. ثمة نبض يحرّك وجوده ويغلّف كتابته. غالباً ما فضل الكاتب اللجوء إلى النصوص القصيرة، والكتابان اللذان أصدرهما «عكس الواحد» و«بذرة الزيتون» يمثلان، بهذا المعنى، فنّه جيداً. إلا أننا سنكون على خطأ فيما لو اعتبرنا هذه الكتابات على أنها مجموعتان قصصيتان أو هذه النصوص مجرد شذرات. ما يلفت انتباهنا، هذه الوحدة العميقة التي تظهر عند القراءة، هذه السمّة التي يملك زمامها عندما يكتب. يبدو الكتاب الأول وكأنه مجموعة متتابعة من النصوص السردية القصيرة المستلّة أو المستوحاة من حياته الخاصة وهي

Twitter: @ketab_n

مهداة «إلى الأمهات، إذ أن نكون اثنين، عملية تبدأ بهن»، من هنا يشكل النص الإفتتاحي قصيدة إلى «ماما إميليا». قصيدة، تشكل مثالاً حيّاً عن عمليات الذهاب والإياب التي تتواتر في نصوص الكاتب بأسرها، والتي تقع ما بين «الكوني» و«الحميمي». بين «الأمهات» وحياته داخل «الرحم». بين هبة الكلمات (أولى الهبات التي تقدمها الأم) وتلك التي لم تعط أبداً. «أمي، هذه الكلمة اخترعها الصبي وحده». وما تبقى هو حياة رجل. كل كل شيء يبدأ من خلال عملية تسابق، جري. بالأحرى إنها عملية هروب يحللها الكاتب بطريقة رياضية و«تكتيكية»، كما لو أننا نشاهد مباراة في كرة القدم، كما لو كنا نشاهد معركة ما. يختار الكاتب المنحدر الذي سيركض فوقه، يتجنب الأجساد التي تسقط حوله، يعرف كيف يحافظ على هذه الأمتار القليلة التي يتقدم فيها على منافسيه وأخيراً يتوقف، بطمأنينة. ذات يوم يقرر عدم الهروب. أكثر كتابات دي لوكا السياسية والأكثر حسيّة موجودة في هكذا نوع من النصوص، نص «الريح المقابلة» والذي يفتتح به سلسلة نصوصه السردية. ثمة جسد في حركة دائمة، ثمة عضلات، شهيق وزفير، نظرات، لنصل إلى تطور علاقة هذه التي يكتبها في عدة أسطر لتشكل في ما بعد خشبة المسرح التاريخي التي ستقدم فوقها، في هذه السنة القاسية التي كان عليها العام ١٩٦٩، سيرة حياة المؤلف. كان أمام خيارين: الهرب أو المقاومة. كان معرّضاً، إن لم يهرب، للتوقيف وللتعذيب. إنه بالتأكيد أمام خيار فردي، بالأحرى أمام الرغبة في البقاء مع الآخرين: «لقد شعرت بالخوف وأنت تشاهد سباق

Twitter: @ketab_n

المعوقين الذين يحوطون بك، لأنه إن سقط واحد منهم، سيشعر الآخرون بالخوف، وسيمرون فوقه». بعد ذلك يأتني الخيار الجماعي: «الذين لم يرغبوا في الهرب بدأوا بالتجمع. رُصت الصفوف. لم يعد الهرب بلبلة الماضي». لم يعد الخيار بين الركض وبين التعرّض لشيء ما، أصبحت اللعبة جماعية، إنها لعبة جيل «هذا الجيل الذي لم يسامح والذي لا يزال يدفع الدين الجزائي للقرن العشرين». من سباق الهاربين من التظاهرات في نهاية الستينيات، ينتقل دي لوكا للحديث عن الأبعاد المتغيرة في سلّم العالم والتاريخ لنصل إلى مدينة جنوى العام ٢٠٠١، حيث نجد جيلاً آخر استلم ميراث أولئك الذين أسماهم بازوليني «الزائدون». يقال عنهم بأنهم شيوعيون، لكننا نحاول أن نتكهن من هم، إنها لسعادة لاذعة وسوداء».

الحسّيّ والتاريخي

ثمة فضيلة ما في هذه النصوص التي تؤلف هذا الكتاب وتتمثل في جعلنا نتمايل بين ما هو جسدي وحسّي وبين التاريخي الذي ينبثق فجأة، تماماً كواحد كان ينظر إلى حذائه ليرفع نظره فجأة وينظر إلى الأفق. ربما هنا أيضاً تكمن إحدى خاصيات دي لوكا أي في هذا التغيير «البؤري» الذي لا يشكل فيه التفصيل «معنى ثقيلاً»، أي لا يلجأ إلى هذه «الصنعة» التي تحاول أن تعطي معنى لكل شيء. ما من تفاصيل دقيقة وإنما هناك محاولة للاقتراب من العالم، والعالم عنده مصنوع من مادة وكلمات، ومن صلاحية البشر أن يقولوا ذلك، عندئذ يصبح لهذا الأمر

Twitter: @ketab_n

معنى وفق ما يقوله دي لوكا. هذا ما نجده أيضاً في سرده لعملية تسلق جبال «لا توفونا دي روزيس»، حيث لا يبتعد مطلقاً عن الصخر إذ يبقى فمه «على بعد نفس من تقبيلها». «جسدان» يتماسان مع الواقع، رحلة مع شريك أزلي هي الحبال، حبل حياة يباعده عنها بقدر ما يقربها. ومع ذلك «نحن اثنان، عكس الواحد ووحدته الكافية»، يختم الكاتب قائلاً.

الالتقاء هنا، وكما في عنوان الكتاب، ليس إلتقاء مجرداً أو التقاء نحوياً. نكتشف في نهاية الكتاب إن الإلتقاء كان إلتقاء أيدٍ كانت تضم بعضها بخفاء تحت الغطاء. الجسد والمادة، الآخر والمجتمع. هذان القطبان يجتازان السرد الذي يتركز حول بعض لحظات حياة. النضال في إيطاليا من عام ٦٩ وحتى عام ٧٥، مهنته كعامل، البعثات الإنسانية... موضوعات و«موتيفات»، تجتاز كل شيء، تشكل صدى لذلك، تمتد من سرد إلى آخر: الحب بمباهجه وعذابه، الأمراض، النساء، و...نابولي دائماً وأبداً.

ليست الكتابة عند دي لوكا اختراعاً، بل هي رواية الأشياء. من هنا تبدو الكتابة وكأنها محاولة لفتح ممرّ، على أمل أن يأتي أحد ذات يوم ويمرّ منه. إنها بدون شك، محاولة لجعل تخييل الذات في مصاف الفنون الكبيرة.

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

غريب هو عالم الكاتب الإيطالي إرّي دو لوكا. إذ استطاع أن يعرف، عبر عدد من الروايات، كيف ينسج عالماً متماسكاً، يرتكز في جزء منه على سيرته الذاتية المليئة بالأحداث والنضال والمنفى. وما الغرابة هنا إلا هذا السحر الذي يقودنا إليه من كتاب إلى كتاب، لا ليخبرنا فقط عن تاريخه الشخصي، بل لننظر معه إلى فترة من التاريخ الإيطالي الحديث، لكن من دون أن يسقط ولا في أي لحظة في متاهة اللعبة التاريخية المبسطة التي تروي مجرى أحداث فقط.

@ketab_n

ISBN 978-9933350741
9 789933 350741